



مصطفى أرمغان mustafa armağan

التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية

جوانب غير معروفة من حياة سلاطين بني عثمان

ترجمة: مصطفى حمزة

التاريخ السري
للإمبراطورية العثمانية
OSMANLI'NIN MAHREM TARİHI

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-01-1122-6

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
OSMANLI'NIN MAHREM TARİHİ
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsored by TEDA

T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi

Kutüphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu

Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)

06030 Ulus/ANKARA/TURKEY

e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر Timas Publishing
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش.م.ل.

Copyright © Timas Publishing, 2011

Arabic Copyright © 2013 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروعة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

التاريخ السري للإمبراطورية العثمانية OSMANLI'NIN MAHREM TARİHİ

جوانب غير معروفة من حياة
سلاطين بني عثمان

مصطفى أرمغان
MUSTAFA ARMAĞAN

ترجمة
عبد القادر عبد اللي

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والترجمة





تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج
«أضواء على حقوق النشر» إحدى مبادرات

معرض أبو ظبي الدولي للكتاب، بدولة الإمارات العربية المتحدة

This edition has been produced with a subsidy by
the "Spotlight on Rights" an initiative of the Abu
Dhabi International Book Fair, United Arab Emirates

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.I



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

ثقافة
THAQAFAT



للناشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (+971-2) فاكس: 6345407 (+971-2)

دبي هاتف: 2651623 (+971-4) فاكس: 2653661 (+971-4)

بيروت هاتف: 786233 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)

إن الناشرين غير مسؤولين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة
في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الناشرين.

التنضيد وقرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

المحتويات

7	مقدمة
11	صرخة في سويوت: الغازي عثمان
18	إنه مقدم: الغازي أورخان
23	معجب بمولانا جلال الدين: مراد الأول خداوندكار (مراد الله)
27	أول الشعراء: بيازيد الصاعقة
31	السلطان المصارع: محمد الأول (جلبي)
35	السلطان الحكيم: مراد الثاني
40	الشغوف بالخرايط: السلطان محمد الفاتح
48	معلم الرماة: بيازيد الثاني
56	عثماني وحدة الوجود: السلطان سليم الجبار
66	الشاعر والصانع: السلطان سليمان القانوني
78	السلطان الذي أهلته السليمية: سليم الثاني
83	سلطان السلاطين الذي لم يستطع قول لا: مراد الثالث
90	صانع الملاعق والحفار: محمد الثالث
94	سيمفونية للحصان: أحمد الأول
100	السلطان العازب: مصطفى الأول
102	الحاكم المعاد إليه شبابه: عثمان الثاني
106	حاد في الأزقة، ممتع الحديث في القصر: مراد الرابع
114	ثماني سنوات في عهد السمرور: السلطان إبراهيم
116	صياد لا يعرف الكلل: محمد الرابع

- 121..... ولي العهد صاحب الرقم القياسي: سليمان الثاني
- 124..... سلطان لم تطأ قدمه إسطنبول: أحمد الثاني
- 126..... من العالمية إلى النرجسية: مصطفى الثاني
- 130..... سلطان السلاطين الذي يهوى الأشغال النسوية: أحمد الثالث
- 138..... منور قطاع المكتبات العثماني: محمود الأول
- 143..... سلطان الحرائق: عثمان الثالث
- 147..... عينان تتوسلان مدداً من النجوم: مصطفى الثالث
- 154..... السلطان الولي: عبد الحميد الأول
- 159..... الرامي المسدد بالهدف: سليم الثالث
- 165..... وجه غامض مسح العرش: مصطفى الرابع
- 167..... مطعم الصدف والخطاط والرياضي: محمود الثاني
- 176..... راعي ددة أفندي ويوهان شتراوس: السلطان عبد المجيد
- 187..... السلطان الذي أرسل زمزم إلى أوروبا: عبد العزيز
- 196..... نوبة جنون لمدة 93 يوماً: مراد الخامس
- 198..... الذكاء الذي يقرأ لغة الشجر: عبد الحميد الثاني
- 213..... شاعر تشنق قلعة وسلطانها: محمد الخامس رشاد
- 219..... "هذه كارثة": محمد السادس وحد الدين
- 223..... سلطان الرسم غير المتوج: الخليفة عبد المجيد

مقدّمة

العثمانيون فاتحون مظفرون، انطلقوا في سبيل الله،
وجمعوا الغنائم وأنفقوها في سبيل الحق ونصرته، وبذلوا
الغالي والنفيس في سبيل الدين، ولم تغرهم الدنيا، وانتقموا
من أهل الشرك.

أوروش بيك

من المعتاد أن تتبادر إلى أذهاننا عند ذكر السلاطين العثمانيين صورة القادة
العسكريين المستلین سیوفهم في ساحات الوغى، والقادة السياسيين المججلة
أصواتهم أمام رجال الدولة في قاعات تقديم الطلبات. وبذلك نطن عن خطأ
أو صواب أن جوانبهم الإنسانية قد أقصيت عمداً عن كتب التاريخ.

إن هذه الصور النمطية الدائعة عن السلاطين، والتي تظهرهم وكأنهم لا
يكون ولا يضحكون ولا يفرحون ولا يحزنون هي التي جعلتنا نضيء على
جوانب غير معروفة من سيرهم، حيث نعمل على تغيير هذه الصورة النمطية
الشائعة عنهم؛ فهم ليسوا أصحاب وجوه مقطبة ومملة على الدوام.

لقد حوّل السلاطين العثمانيون في كتبنا إلى رجال آليين ليست لديهم أي
حياة شخصية خارج "حرم القصر". هذه المعطيات الشائعة هي السبب في عدم
شعورنا بذلك الدفء الإنساني نحوهم، وهو الذي يفترض به أن يجذبنا إليهم.
من الطبيعي أن تكون لأولئك الأشخاص حياة عاطفية وإنسانية؛ أي إنهم
يصابون بالصداع، وتطول أظافرهم، وتُنخر أضراسهم، ويتضايقون، ويعشقون.
ويظهر ذلك بجلاء في رسائل الغزل التي كتبها السلطان عبد الحميد الأول
لجاريته روهشاه، فقد أظهرته تلك الرسائل كمن يعرف كيف يسكب عواطفه
السرية في سطور ملتهبة.

لا يمكننا تفسير انشغالهم بالحمالات والفتوحات على أنه وسيلة لتهدئة
قلوبهم فقط، فليس سراً أن بعضهم سعى لتهدئة قلبه بإشغال نفسه بالموسيقى

والشعر، أو بالصيد والفروسية والمصارعة، أو بالنجارة وصناعة الحلبي، أو ببعض الحرف النسوية كالخياطة والتطريز، ولكن هذه الأمور أخفيت عمداً أو سهواً من كتب التاريخ.

من غير الممكن تقريباً إيجاد كتاب مستقل يعرض لجوهر حياة السلاطين العثمانيين الإنساني بشكل متكامل، وغالباً ما تُخفي المعلومات التي تعرض لحياتهم كأشخاص وليس كقادة عسكريين وسياسيين، وتُمرر بشكل عابر بين السطور.

قد تقع أيديكم على بعض الأبحاث التي تعرض نظم السلاطين الشعر، أو إتقانهم فن الخط أو تلحين الموسيقى، وإلى حدٍّ ما رياضتهم المفضلة. ولكن هذه الأبحاث تكون ضمن سياق يتناول نشاطاً معيناً، فقد تجدون كتباً تحمل عناوين شبيهة بما يلي: السلاطين الخطاطون أو السلاطين الملحنون. وقد ترد هذه المعلومات متفرقة بشكل عشوائي، ضمن سياقات أوسع وأشمل. ولكن، إذا أردنا الحصول على معلومات حول أمور أكثر خصوصية، فالصدفة خير معين لنا، وهنا تكمن الطامة الكبرى. لعل أكثر "المهن السلطانية" المعروفة كانت ممارسة السلطان عبد الحميد الثاني للنجارة. ولكن، لا يجد أحد أهمية لذكر المعلومة التي تفيد بأن هذه الهواية قد آلت إليه من والده عبد المجيد.

لقد أردتُ من وراء كتابة هذا الكتاب أن أقدم معلوماتٍ نادرة وغريبة مستقاة من مئات الكتب والمقالات والمواد الموسوعية، وأن أرفع أحد الأغطية الملقاة على صورة التاريخ العثماني قليلاً، كي تشعروا - أعزائي القراء - بضربات قلب ذلك التاريخ الخجولة المخفية.

مما لا شك فيه أنه يمكن توسيع - أو نفسح إذا جاز التعبير - هذا الكتاب المؤلف اعتماداً على معلومات مختصرة ومثبتة قدر الإمكان. ويمكن مضاعفة حجمه أضعافاً عبر أمثلة موسعة عن شعر السلاطين أو ألقابهم، وعن طرائفهم الممتعة، ونواديرهم ذات المغزى وما شابه ذلك، لكنني لم أرغب بعمل هذا. أردت أن أقدم معلومات مختصرة ومركزة قدر الإمكان، وأن أذكر المراجع التي أخذتُ المعلومات منها، لكي يُفتح هذا الباب المملون أمام الباحثين الذين

سيأتون من بعدنا. وأكثر من هذا، أردت أن أكون رائداً لمن يريد أن يلج عملية البحث في تاريخ الأسرة العثمانية الثقافي، وأن أعرض لإخوتي الأصغر سناً التواقين للجانب السري من هذا التاريخ، ويريدون تحييب الآخرين به حجم العائق الذي يواجههم. هدفي - كما هو دائماً - التحييب بالتاريخ وفهمه.

ألا يهمسون بأذانكم بأن لهم وجوهاً أخرى مخبوءة محرمة مخفية غير تلك التي تُقدّم بشكل باهت في كتب التاريخ كصورة الفاتح الذي يطعم أشجار الورد في حديقته، وسليم الجبار الذي يصهر الذهب ويصوغه كالتطريز، وسليم الثاني الذي يصنع عكاكيز للحجاج مخففاً عن نفسه عدم استطاعته الذهاب إلى الأرض المقدسة؟

ها هو "تاريخ العثمانيين السري" يدعوكم إلى العالم الخاص بالسلاطين الذين حكم أكثرهم ثلاث قارات.

بهذه المناسبة، لنذكر الذين سيرون نقصاً في هذا الكتاب الذي يحمل عنوان "تاريخ العثمانيين السري" لأنه لا يبحث في حياة الحرم العثماني أن هناك كتابا يبحث بالمرأة العثمانية وحياة الحرم قيد الإعداد، ومن لديه الفضول فسيجد ضالته براحة بعد فترة قصيرة.

أخيراً، إليكم بعض الملاحظات حول موضوع الكتاب الرئيس...

ثمة تقليد يقضي بتدريب كل رجل من رجال الأسرة المالكة العثمانية تقريباً على مهنة يدوية أو فن جميل أو أكثر. يُوجّه الأمراء العثمانيون منذ الصغر إلى مهنة بموجب تقاليد الأخويات (تنظيمات تجمع منتسبي مهنة) أو الفتوة في القصر. عاش التقليد الإسلامي والتركي الذي يفرض على كل فتى تعلّم مهنة أو فن يُكسبه معيشته إذا لم يُحالفه الحظ في الحياة - ويسمى "سواراً ذهبياً" - قروناً في عقلية الأسرة المالكة، وطُبّق على أرض الواقع، ومن اللافت استمرار العمل في هذا التقليد.

يدّعي إسماعيل هامي ضانيشموند أن السلاطين كانوا يحققون دخلاً من ممارسة مهنهم، فيقول: "كانت تلك الأعمال اليدوية التي تُؤمن للسلاطين نفقاتهم الشخصية تباع للدولة أو لأركان القصر أو يتهافت عليها الزبائن في

الأسواق". ستقرأون تفاصيل ملاحظته الغريبة هذه في الكتاب الذي بين أيديكم. من الطبيعي جداً أن تُطوّر هوايات سلاطين المستقبل وميولهم المهنية أثناء تنشئتهم في مدرسة القصر السلطاني "مدرسة الأمراء"⁽¹⁾. ومن الطبيعي أيضاً أن تلعب الأسرة الأرستقراطية الوحيدة في مجتمع غير طبقي دوراً طليعياً في هذا المجال. ولا يمكن تفسير الأمر على نحو مختلف.

أدرجتُ في الكتاب هوايات السلاطين العثمانيين، وميولهم، ومهنتهم، وفنونهم، وما أحبوه، وسلوكهم، وخصوصياتهم الشخصية، وبعض "المبادئ والقيم" حسب ما يتطلبه السياق على شكل مواد مختصرة ومكثفة⁽²⁾.

هناك احتمال كبير بأن باباً سيُفتح على صالة عرض كبيرة بعد قليل، وستظهر أمامكم لوحات لشخصيات تشعرون أنها قريبة منكم وأنتم تستعرضونها، وستنطلقون في رحلة صامتة عبر التاريخ تستدعي فيها الصفات الشخصية صفات شخصية أخرى. أوليس التاريخ رحلةً على طريق معرفة الذات؟

مصطفى أرمغان

عمرانية تشرين الأول 2008

(1) للحصول على معلومات عامة حول هذه المدرسة، انظر زيا إركنس، "مدرسة الأمراء في قصر طوب قاب" التاريخ يتكلم، العدد 25، شباط 1966، ص 2058-2059.

(2) هناك معلومات عامة تقول إن بعض السلاطين العثمانيين الذين لم ترد أسماءهم قد اشتغلوا بمهن مثل صناعة السكاكين والتجليد. ومن المحتمل أن غالبية تلك المهن لم تجد طريقها إلى التدوين، ولن نعرف بها في أي وقت.

صرخة في سويوت: الغازي عثمان (1299-1326)

غدا عثمان غازياً بإرشاد من الشيخ أدبعالي، وثمة احتمال كبير بأن يكون هذا رئيس أخوية، وقد قلده سيف الغزو (وهذا تقليد الأخويات) ثم بدأ ينطلق بالحملات.

خليل إنالجيك

تعني دراسة التاريخ الانتباه. فمثلاً، ولد الغازي عثمان في العام 1258 للميلاد. هل يعني لكم هذا التاريخ شيئاً؟ أم يلفت انتباهكم إلى شيء؟ بالنسبة إليّ، يذكرني هذا التاريخ بسنة الشؤم التي تمكن خلالها المغول من انتزاع السيطرة على قلب الحضارة الإسلامية. ففي الثالث عشر من شباط عام 1258، أحرق المغول مخزوناً حضارياً إسلامياً عمره قرون وتشكّل بجهود عظيمة، وفي الوقت نفسه ولد لأرطغرول بيك الذي استوطن شمال غرب الأناضول صبي. سينجح أحفاد ذلك الصبي بالحفاظ على الأعمدة التي رفعت سقف العالم الإسلامي وكانت على وشك الانهيار ستة قرون أخرى، وبإحياء واحدة من أطول القفزات التاريخية.

غرابية هذا التزامن تكفي لكي نخبرنا أن ظهور أبناء عثمان في ميدان التاريخ لم يكن محض صدفة، بل بتلطف إلهي. وهذا ليس رأي كبير الفلكيين الشيخ أحمد ورجل الدين سعد الدين أفندي فقط، بل رأيي أنا الذي أتيت بعدهما بقرون أيضاً. لو لم تدخل دورة التاريخ قوة وحدت العالم الإسلامي، ورفعت راية الإسلام كالدولة العثمانية في الوقت المناسب، لكان من المحتمل أن يعيش هذا العالم الذلّ والتجزئة التي عاشها عام 1918، ولكن قبل فترة طويلة؛ أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وفق تصوير مؤرخ القصر يحيى بستان زادة بعد قرون، إن الغازي عثمان

مؤسس إحدى دول التاريخ الكبرى كان طويل القامة، وأبيض البشرة، وكستنائي الحاجبين. وبحسب تاريخ كبير الفلكيين، كان أسمر البشرة، وعاقده الحاجبين، ومستدير الوجه، وعريض المنكبين، وتصل يده إلى ركبتيه عند وقوفه⁽¹⁾. ونستنتج من هذا الوصف أن ساقى الغازي عثمان كانتا قصيرتين، أو أن ذراعيه كانتا أطول من المعتاد. ونرى أن نموذج البنية الجسدية هذا قد عاش ما يزيد على ستة قرون وصولاً إلى الخليفة عبد المجيد.

لُقّب الغازي عثمان بين أصدقائه بعثمان الأسمر، ويعرف عنه أنه عاش حياة بسيطة بعيدة عن البذخ واللهو والسفاهة. وينقل الرحالة الشهير ابن بطوطة أنه كان يُلقّب بالعثماني الصغير. وتخبرنا وقفية⁽²⁾ (مدونة قانونية) باللغة الفارسية تعود لعام 1324 أن الغازي أورخان لُقّب بشجاع الدين، ولُقّب والده بفخر الدين⁽²⁾.

عاش الغازي عثمان من عائد إنتاج أغنامه الخاصة (حليب، لبن زبادي، جبن...). ولم يستطع العثماني تقبل فكرة أن "باج/الضريبة" من حق البيكوية حين اصطحبوه إلى سوق مدينة فتحوها. وهكذا رفض ذلك الدخل الدسم. وكما تشير هذه القصة إلى حساسيته، وعدم مدّه يده إلى ما هو ليس من حقه، فهي تحمل أهمية من زاوية تعبيرها عن عدم اندثار بعض الخصوصيات الآيلة من حياة الرّحل.

إن عدم ظهور الذهب والفضة بين ممتلكاته بعد وفاته مؤشر كافٍ على زهده وترفعه عن الماديات. وبحسب المعلومات الواردة في المصادر التاريخية، إن ما وجد في تركته هو:

ثوب جديد نسبياً يدعى "صرطاق تكلّسي"، وخرج يعلق على جنب

(1) كبير الفلكيين الشيخ أحمد، تاريخ كبير الفلكيين (صحائف الأخبار في وقائع الآثار) المجلد الأول، ترجمة: إسماعيل إرونصال، إسطنبول/ بلا تاريخ، جريدة ترجمان، سلسلة 1001 من أمهات الكتب، ص 69.

(2) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، "وقفية الغازي أورخان بيك - 724 ربيع الأول - 1324 آذار" بلاتن، المجلد الخامس، العدد 19، أنقرة 1941، ص 281.



منمنمة غربية تظهر الغازي عثمان جالساً على فراش يشبه الأريكة وهو يحمل السيف.

الحصان يدعى "يانجفي"، ووعاء ملح، وحمالة ملعقة خشبية⁽¹⁾، وزوج من أحذية طويلة الساق، وعدة خيول جيدة، وبضعة أغنام (ثلاثة) يعلفها من أجل إكرام ضيوفه⁽²⁾، ولفة من قماش الدنيزلي، ودرع للحصان، ورايات حمراء من منسوجات أقشهير، وسيف، وكنانة، ورمح، وما شابه ذلك.

ولكن، ليس لدينا أي معلومات ملموسة حول مُتَع عثمان بيك الخاصة، وهو الذي تجلت فيه شخصية "الغازي" بكل معنى الكلمة. ولكن الموثق وجود سبحة خشبية كبيرة الحبات يقال إنه كان يستخدمها، وطبل بقيا محفوظين في مزاره الكائن في مدينة بورصة، وبقيا يشاهدان حتى أواخر القرن الثاني عشر

(1) كانت الملعقة قديماً أداة يحملها المرء معه كالسلاح. تُدس الملعقة في الحزام على الخصر، أو توضع في حافظة من الشعر الأبيض في مكان قريب من الرأس كما يفعل الإنكشاريون، أو تُدس في الحزام الجلدي السميك، وتُخرج وقت الطعام، وتُغسل بعد الاستخدام، ثم تعاد إلى مكانها. إعداد أوغوز آر يقانلي، الأول في تاريخنا، إسطنبول 1973، منشورات ملييت، ص 8-9.

(2) ما ذكر من تركته مأخوذ من القائمة التي أعدها عاشق باشا زادة. انظروا إلى: تاريخ عاشق باشا أوغلو، إعداد [نهال] أطمبز، إسطنبول 1970، منشورات وزارة التربية القومية، ص 40.

الهجري. وهما هديتان أرسلهما له السلطان السلجوقي⁽¹⁾. ولكن السبحة الخشبية والطبل احترقا في حريق اندلع عام 1855 ويسمى "القيامة الصغرى"، ولم يبقا إلى يومنا مع الأسف⁽²⁾.

عندما نتساءل: "ماذا كان عثمان غازي يرتدي يا ترى؟" فإن رسومه تشكل المصدر الأول الذي يمكن أن يساعدنا؛ وهذه تعطينا إشارة إلى أنه كان يرتدي ألبسة بسيطة. ولكن الرسامين ألبسوا الغازي عثمان ما كان سلاطين العثمانيين يلبسونه في العصر الكلاسيكي. لقد رسمه قسطنطين قابضاغلي في أواخر القرن الثامن عشر ضمن سلسلة اللوحات النصفية للسلاطين مرتدياً ألبسة كلاسيكية لا يمكن تمييزها عن ألبسة القانوني ومراد الثالث؛ مع أن العثمانيين لم يستخدموا هذا النوع من الألبسة المزركشة، بل حتى سادة الأناضول لم يلبسوها إلا بعد أن استقروا في القصور في القرن الرابع عشر.

وحسب بعض المصادر، كان يعتمر قبعة طويلة مصنوعة من نسيج أحمر يدعى خراساني ملفوفة بقماش أبيض رقيق عليه نوع من الخيوط المجدولة. وهذا نوع من اللفات يشبه ما كان النخبة في مجتمع الأويغور المسلم يعتمرونه في وسط آسيا. وكانت جبهته طويلة وذات ياقة حمراء عريضة.

سنورد في ما يلي عبارة قد تبدو لكم للوهلة الأولى مدعاة للدهشة:

لم يكن الغازي عثمان يرتدي ثيابه مرتين. أعرف أن العبارة السابقة ستثير دهشتكم، إذ ألم يكن يعيش حياة بعيدة كل البعد عن مظاهر الترف والبذخ؟ الجواب هو نعم. ولكن العبارة السابقة لا يجب تفسيرها كتعبير عن البذخ، بل كتعبير عن العطاء الذي يهدف من ورائه إلى إسعاد من هم أصحاب حاجة مساكين⁽³⁾. فإذا نظر أحدهم إلى لباسه بانتباه خلعه فوراً، ووهبه إياه. وبحسب

(1) أحمد راسم، "تاريخ العثمانيين: مختارات" إعداد عصمت برمقسط، إسطنبول 1968، منشورات وزارة التربية القومية، ص 7-8.

(2) زيا نور آقصون، "تاريخنا غير الرسمي: سلاطين العثمانيين"، إسطنبول 1997، منشورات المعرفة، ص 17.

(3) بديع شهسوار أوغلو، "آخر أيام السلاطين العثمانيين"، مجلة التاريخ التركي بالوثائق، العدد: 4 كانون الثاني 1968، ص 65.

نص قديم، كان يكسو العراة الذين لم يكن لديهم ما يسترون به أنفسهم، ويتصدق على الأرامل بشكل خاص.

كانت ثمة عادة قَبَلِيَّة قديمة، يفتح بموجبها سيد القبيلة بيته للنهب يوم (الخضر وإلياس)⁽¹⁾. فيخرج سيد القبيلة مع زوجته من البيت من دون أن يأخذ شيئاً معهما؛ حتى مجرد دبوس، ويهجم أفراد القبيلة على البيت بعد خروجهما، وينهبونه. وكانت هذه العملية تسمى "فتح بيت السيد/ نهب بيت السيد". وكان الغازي عثمان ملتزماً بهذا التقليد، يفتح بيته مرة في السنة للنهب. وقد استلهم الشاعر توفيق فكرت من قضية "نهب بيت السيد" فكرة قصيدته التي يهجو فيها أعضاء حزب الاتحاد والترقي لكثرة نهبهم الدولة⁽²⁾.

اعتبر الغازي عثمان أول السلاطين العثمانيين، ولكنه لم يكن سلطاناً، وحظي بلقب "الغازي" و"بيك". ووصلت إلينا قصيدة نُسبت إليه، عجت من أولها إلى آخرها بصور البطولة والنصح لمُخاطبه. وعلى الرغم من الشك بنسب القصيدة للغازي عثمان، ولكن صحة نسبها تُثبت اعتماداً على مقياس غريب وهو: لماذا نسبت إليه هذه القصيدة وليس غيرها؟

إليكم في ما يلي جزءاً من قصيدته التي تنتشر على نطاق واسع:

ابن مدينةً وسوقاً جديدةً بمواد بناء من القلب

اعمل ما تريد ولكن لا تظلم فلاحاً

انظر إلى المدينة القديمة الجديدة إن يغول فهي قائمة دائماً

اهدم بورصة التي كسرتُ فيها الكفار واينها من جديد

اغدُ ذنباً واقصد قطيعاً، وكن أسداً ولا تتقهقر

افعل شيئاً وكن جندياً، وحاصر مضيق اللسان

لا تستخف بمدينة إزنيك، ولا تتدفق كنهر صقاريا

(1) يسمى تاريخ السادس من أيار في الثقافة التركية اسماً مشتقاً من اسمي خضر وإلياس. وبحسب

الأسطورة، إن الخضر والنبي إلياس التقيا في هذا التاريخ... المترجم.

(2) هزيمة المتحالفين، والأعمال الكاملة لتوفيق فكرت، إعداد: فخري أوزون، إسطنبول 1973، دار

الانقلاب والعنفاء للنشر، ص 36-37.

خذ إزنيك، ولا تبال، وابنِ سوراً لكل برج فيها
أنت عثمان بن إرطغول من سلالة الأغوظ وقراخان
أكمل حقك، وافتح إسلامبول، واجعلها حديقة ورد.

تتفق المصادر جميعها على أن الغازي عثمان كان قنوعاً جداً، ومحباً
للعطاء وليس الأخذ. ومن عاداته أنه كان يهب أصحاب الحاجة كل ما يغنمه
في الغزوات. على سبيل المثال، كان يطعم كل من يكون في بيته وقت العصر.
والغريب أن ذلك الإطعام كان يسبقه عزف الموسيقى. (كان العثمانيون يفضلون
سماع الموسيقى قبل تناول الطعام، وليس أثناءه) فقد كان يأمر فرقة المهتر التي
أرسلها السلطان السلجوقي علاء الدين باعتبارها أحد تقاليد البيكوية بمباشرة
العزف، وكانت تتوقف عن العزف عند البدء بتقديم الطعام⁽¹⁾. الخصوصية
الأخرى لتلك المائدة أن كل من يتواجد هناك يجد له مكاناً فيها من دون تمييز
بين غني وفقير، وبين مسلم أو مسيحي.

وهل يمكن لبطل كالغازي عثمان ألا يهتم بالمصارعة؟ ثمة مصادر تلمي فضولنا
في ما يتعلق بهذا الجانب، فتفيد أنه مارس المصارعة، وأجاد استخدام السلاح.
توفي الغازي عثمان بعد وفاة حميه الشيخ أدبعالي بثلاثة أو أربعة أشهر،
وبعد وفاة زوجته ابنة أدبعالي السيدة ملحون بشهرين. ومن المعروف أنه دفنهما
بيديه في بيلجيك. وعندما وافته المنية دُفن في سويوت بداية، ثم أمر الغازي
أورخان بنقله إلى بورصة، ودفنه في قبره الكائن اليوم في حي طوبخانه التزاماً
بوصيته التالية التي كتبها قبل وفاته: "يا بني، عندما أموت ضعني تحت تلك القبة
الفضية في بورصة". (ولكن قبره الحالي يعود إلى عهد السلطان عبد العزيز.
فقد تهدم القبر الأول تماماً في زلزال عام 1855)⁽²⁾ وقد أمر عبد الحميد الثاني

(1) بديع شهسوار أوغلو، "الأيام الأخيرة لسلطين العثمانيين"، ص 64.

(2) يمكن مراجعة كتابي "مدائح لمدينة بورصة"، إسطنبول 1998، إز/ أثر للنشر من أجل رؤية صورة تربة
الغازي عثمان بحالتها الأولى. أعدت طباعته مرة ثانية بعنوان: "المدينة المؤسسة للعثمانيين: مدائح
لبورصة، إسطنبول 2006، منشورات تيماش. ولم تصل إلينا أيضاً تربة الغازي أورخان المجاورة لها
كما كانت في حالتها الأولى، فقد أعيد بناؤها بشكل كامل في عهد السلطان عبد العزيز أيضاً.

ببناء مقام في سويوت حيث دفن للمرة الأولى.

من المحتمل أن موته كان بسبب داء المفاصل أو النقرس⁽¹⁾. النقرس هو المرض الوراثي في العائلة العثمانية المالكة، والأسر المالكة عموماً. وعندما يتحدث عاشق باشا زادة عن الفترة الأخيرة من حياة الغازي عثمان باشا يقول: "كان ثمة عطب في قدم عثمان. وكان يتألم منها"⁽²⁾. ويستخدم الكاتب نفسه التعبير ذاته عند الحديث عن وفاة السلطان محمد الفاتح، فعبارة: "سبب وفاته علة في قدمه"⁽³⁾ تجعلنا نأخذ بعين الاعتبار احتمال وفاة الغازي عثمان باختلاطات النقرس كحفيده.

انطلقنا في هذا الطريق على أساس أنه ليس ثمة الكثير حول المميزات الشخصية لمؤسس الدولة العثمانية، ولكننا عرفنا جانباً ملوناً من حياة هذه الشخصية الفذة.

(1) ألدرسون، المصدر السابق نفسه، ص 173.

(2) تاريخ عاشق باشا أوغلو، ص 35.

(3) تاريخ عاشق باشا أوغلو، ص 234.

إنه مقدم: الغازي أورخان (1326-1361)

كان أورخان نموذجاً لجميع السلاطين على مدى قرن ونصف.

أحمد حمدي طابندر

يرى كاتب تاريخ العثمانيين إدريس البتلسي في كتابه الموسوم بالفارسية هشت بهيشت⁽¹⁾ أن الغازي أورخان هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية. بينما يرى خليل إنالچق المؤرخ العثماني الذي لا يغيب عن عينه أي تفصيل أن أورخان كان أول حاكمٍ عثماني لُقِّب بلقب سلطان. ويعتبر عبد الرحمن شرف بيك آخر المؤرخين العثمانيين أنه مقدم، ووضع أُسساً قوية لبناء الدولة التي بدأ والده بنائها، ونجح بنقل قبيلة كانت تجوب فيافي الأناضول إلى دولة حكمت في أوروبا وآسيا بفضل إدارته العادلة.

ويكمن خلف صفاته كمؤسس عظيم الأدب الذي وصله من الشيخ أدبعالي جد أخيه غير الشقيق علاء الدين، وإرادة والده عثمان الفولاذية، وصدقه الذي لا يحيد عنه، وتواضع أخيه علاء الدين⁽²⁾، وصراحته، ودعاء علماء المرحلة له بالبركة والحفظ.

يعد السلطان الغازي أورخان ثالث السلاطين العثمانيين، وأطولهم حكماً؛ إذ بلغت فترة حكمه ستة وثلاثين عاماً. وتفيد المصادر أنه كان وسيماً ومهيباً وقوياً، وأبيض الوجه مع ميل إلى اللون الوردي، وعاقده الحاجبين، ومدور

(1) تعني ثمانية سلاطين أو ثمانية جنان... المترجم

(2) تفيد بعض المصادر أن علاء الدين بيك أخوه من أم أخرى. وثمة احتمال كبير أنه الأخ الشقيق لأورخان. انظروا إلى: عبد القادر أوزجان، "علاء الدين بيك" الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 320. فقد أصدر أخطر القرارات المتعلقة بمستقبل الأسرة العثمانية المالكة، ورفض الجلوس على العرش على الرغم من أنه الأكبر، وبهذا أفسح في المجال لكي تكون السلالة العثمانية من أبناء أورخان وليس من أبنائه. وهناك جامع سُمِّي باسمه بني في بورصة.

اللحية، وطويل القامة، وعريض المنكبين، وكان أنفه يشبه أنف كبش، وكانت عيناه واسعتين. أما المؤرخ الرومي هالكوكونديليس فيقول إن الغازي أورخان كان: "شديد اللباقة، وكريماً بشكل خاص مع الفاتحين والفنانين والفقراء". أما المؤرخ نشري فيقول إنه كان يحب العلماء وحَفَظَةَ القرآن، وخصص لهم رواتب تسمى بالعثمانية: "ألفة".

لا يُنكر دور الغازي أورخان في بناء الدولة العثمانية على أسس سليمة، وقد تزوج من ابنة والي بني حصّار المسيحي السيدة نيلوفر، وأنجبت له مراداً، لهذا السبب أبرز كثيراً أن السلالة العثمانية من نسل السيدة نيلوفر⁽¹⁾.

بالنسبة لزواجه، يمكننا أن نستنتج من الناحية العمرية وضعاً غريباً في زواجه من السيدة نيلوفر: فعندما تزوّج الغازي أورخان من السيدة نيلوفر كان في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره. وبهذا تكون السيدة نيلوفر أكبر من الغازي أورخان بخمس سنوات أو ست، وبالتالي يمكن القول إن زواجها منه - في البداية على الأقل - لم يكن سوى عمل رمزي. لهذا السبب، وكما يعتقد رشيد أكرم قوتشو، إنه من غير المعقول أن ينشأ "عشق جسدي" بين ولد في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، وصبيّة في السادسة عشرة من عمرها.

الجانب الآخر الغريب أيضاً هو زواج الغازي أورخان السياسي من تيودورا ابنة إمبراطور بيزنطة يوانيس كانتاكوزين. (حسب إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، إن هذا الزواج تم في أيار 1346⁽²⁾) وبموجب هذا الزواج، وضع العثمانيون خمسة آلاف جندي تحت تصرف البيزنطيين. ويبدو أنه كانت للإمبراطور شروط أخرى كأن يُمكن الغازي زوجته من رؤية عائلتها كلما استبد بها الشوق لرؤيتهم. ونجد دليلاً على هذا الشرط في أحد السجلات الذي يشير إلى أن الغازي أورخان أتى مع زوجته إلى جوار أسكودار في إسطنبول عام 1347، حيث مدّ جنوده سجاداً على العشب (هذا يعني أن الفصل كان ربيعاً أو صيفاً)، وأتى جنود بيزنطيون

(1) بعض الأبحاث تشير إلى أن العروس المجلوبة من بيلجيك لم تكن نيلوفر (هولوفيرا)، بل إحدى أولى زوجات أورخان، وأن نيلوفر جارية جلبت إلى القصر. انظروا: Leslie P. Peirce, The Imperial Harem, Oxford University Press, 1993, P. 34.

(2) أوزون تشارشلي، "وقفية الغازي أورخان بيك"، ص 267.



بحسب منمنمة طاشكويرولو زادة يلتقي الغازي أورخان (إلى اليسار) بعلاء الدين الأسود أحد رجال العلم في عصره. يدا الغازي معقودتان أمامه، ويستمتع لأستاذه بكل أدب.

على متن زورق إلى قرب برج البنت، واصطحبوا تيودورا إلى قصر والدها، وبعد بقاء تيودورا هناك فترة، وإشباع شوقها لعائلتها أعادوها إلى جوار برج البنت، وسلموها لجنود أورخان بيك.

ومن المعلوم أن عرس تيودورا أقيم في سيلفري، وجاءت السفن العثمانية إلى هناك لأخذ العروس، وانطلقت من مودانيا إلى بورصة، واصطحبتها إلى قصر أورخان بيك في (حصار)⁽¹⁾.

(1) انظروا إلى: جمال قوظان أوغلو، "زواج تيودورا والغازي أورخان في سيلفري"، التاريخ الاجتماعي، العدد 11، تشرين الثاني 1994، ص 27-29. انظروا كذلك إلى خليل إنالجك، "السلطين العثمانيون في مرحلة التأسيس" (1302-1481)، إسطنبول 1010، منشورات إسام، ص 54.



الأصل موجود في سانت بطرسبورغ، حسب اسكندرنامه أحمدي فإن الغازي أورخان يلتقي بطرك سيلانيك الراهب غريغوري بالاماس. ألبستهم مختلفة بشكل لافت للانتباه. على رؤوسهم قبعات، ولم تكن قد درجت اللفات بعد.

ونظراً لافتقارنا إلى المعلومات المؤكدة عما إذا كان الغازي أورخان يهتم بالفنون الجميلة أم لا، يمكننا اعتبار المزهريّة المعروضة في متحف اللوفر والتي تحمل اسمه بمثابة طرف خيط في هذا الموضوع، والتعمق في الجانب الفني للغازي أورخان⁽¹⁾.

يصفه لنا الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الذي حظي بمقابلته شخصياً: "أسمى سلاطين التركمان" و"يفوقهم جميعاً بما لديه من أراض وجنود وغنى". ومن خصوصيات أورخان بيك حسب ابن بطوطة، أنه كان يحكم مئة قلعة، ويقضي أغلب وقته بالتجوال عليها. ويضيف الرحالة: "يروى أنه لم يكن يقضي

(1) ضوغان قوبان، "Turkish Culture & Arts" إسطنبول 1986، منشورات بنك الأناضول، ص 119.

أكثر من شهر في أي مدينة، ويخوض الحرب باستمرار ضد الكفار، ويحاصر قلاعهم واحدة تلو الأخرى، ويأخذها منهم".

ويروى عنه أن أكثر ما يدخل البهجة إلى نفسه هو إشعاله قناديل الجوامع التي أمر ببنائها، وتوزيعه الطعام الذي أمر بطهيه في قصره على الفقراء والمساكين بنفسه⁽¹⁾. أما طانبنار فيصف خصوصية الغازي أورخان التأسيسية على النحو التالي:

"إنه في نقطة البداية لا يتوقف عند حدود بناء إمبراطورية، فيضيف إليها عمق الرحمة والشفقة أيضاً"⁽²⁾.

حسب كتاب التاريخ الصافي ليحيى بستان زادة، كان الغازي أورخان يصوم أيام الاثنين والخميس، ويعتمر قبعة من وبر الصوف، ويلفها بلفة بيضاء تيمناً بمولانا جلال الدين الرومي⁽³⁾. وبحسب بعض المصادر، كان يعتمر قبعة من وبر حيوان أبيض.

دعونا لا نكتفي بالمقطع القصير الذي نقلناه عن صاحب الذكاء النوعي أحمد حمدي طانبنار في محاولة فهمه الغازي أورخان على حقيقته، ولنكمل كلامه. انظروا كيف تلتقط نظرة هذا الفنان الأصيل الثاقبة طيران الغازي أورخان بجناحي الشاعر يونس إمرة:

"أنا لا أميز بين يونس والغازي أورخان ومن معه ممن عملوا على تأسيس الإمبراطورية الثانية. كلما انحنيت نحو وجه الغازي أورخان، رأيت خطوطاً منعكسة من ديوان يونس. وأحيي عالم القيم البناء المتولد من لغته التركية وزوبعة روحه الكامنة خلف تلك الفتوحات كلها".

(1) يحيى أفندي بستان زادة، "التاريخ الصافي/ تحفة الأجباب" إعداد: نجدت صقا أوغلو، إسطنبول 1978، منشورات ملييت، ص 31.

(2) انظروا إلى: أحمد حمدي طانبنار، خمس مدن، إسطنبول 1988، منشورات وزارة التربية القومية، ص 114-115.

(3) بديع شهسوار أوغلو، الأيام الأخيرة للسلطين العثمانيين وموتهم، مجلة التاريخ التركي الموثقة، العدد 5، شباط 1968، ص 48.

معجب بمولانا جلال الدين: مراد الأول خداوندكار (مراد الله) (1389-1361)

ذات ليلة، قال له ذو وجه منور في حلمه: "ابن قصرًا في
أدرنة"، وأشار إلى مكان القصر.

في اليوم التالي، وجد الغازي خداوندكار مع كبار رجال
الدولة المكان، وأمر ببناء قصر عظيم، وجعل المدينة مركزاً
للسلطنة.

الشيخ أحمد كبير الفلكيين

نعلم أن عدداً من السلاطين العثمانيين خضعوا لتربية عسكرية، خاصة
السلاطين العشرة الأوائل، وفي ما بعد عثمان الثاني الملقب بالفتى، وقاد أمثال
مراد الرابع ومصطفى الثاني شخصياً جيوش الحملات، وحققوا انتصارات كبيرة
في ميادين الوغى وعمليات الحصار. من المعلوم أنه من الصعب إيجاد قائد
عسكري يقود المعارك ويمتلك عقلاً عسكرياً مُخَطَّطاً، ومع ذلك نرى أن صفة
القائد العسكري المحنك رافقت السلاطين العشرة الأوائل وكأنها خاصية وراثية.
ليس من السهولة بمكان إيجاد حالة كهذه في الأسر الحاكمة. ويمكن
وصف ظهور قادة عسكريين بشكل متتالي في الأسرة الحاكمة العثمانية بأنه
ضرب من ضروب الإعجاز.

ومن المعروف أن ثلاثة من السلاطين العشرة الأوائل قضوا أثناء الحملات
العسكرية؛ وهم مراد الأول، والفاتح، والقانوني. ولكن، على الرغم من أن
الأخيرين أسلما الروح أثناء الحملة، إلا أنهما لم يكونا على تماس مع العدو،
ويحتمل أن تكون وفاة السلطان الفاتح خلال حملته ضد المماليك ناتجة
عن مضاعفات إصابته بالنقرس الذي عانى منه لفترات طويلة، وهذا يخالف



حادثة استشهاد مراد الأول في كوسوفو حسب اسكندرنامه أحمددي. رسم لباس السلطان وأركانه بشكل أكثر تطابقاً مع الحقيقة في المنمنمة العائدة للعصر الأول في القرن الخامس عشر.

الادعاءات التي تشير إلى موته مسموماً. أما القانوني فقد كان في حملة سيكتوار، وهو أيضاً كان مريضاً، وتوفي نتيجة تأزم حالته الصحيّة. أما السلطان مراد الأول فهو السلطان الوحيد الذي اغتيل وهو في ميدان المعارك.

تصفه المصادر بأنه مربع القامة، وطويل الرقبة، ومستدير الوجه، وكبير الأنف (أنفه شبيه بأنف الكباش)، وواسع العينين، وعاقد الحاجبين الكثين، وصقري النظرة، وكبير الأسنان المتباعدة، وعريض الصدر. لحيته ليست طويلة ولا قصيرة، أما أصابعه فطويلة وغلظية وقوية جداً ومتباعدة عن بعضها بعضاً. (يقال إن طغراءه نجمت عن ضغطه بإصبعه على الورق). صوته كان قوياً في الحروب ويُسمع من مسافة بعيدة.

تُبرز المصادر العثمانية الجانب الخيّر والعاقل لمراد الأول، أما بعض

المصادر الغربية فتصفه بأنه قليل الكلام، وأن عباراته جميلة على قلتها، وأنه "حاكم خير، وصياد لا يعرف التعب، وفارس شهم". ويصفه ديمتري كانتمير بأنه "رمز الاستقامة"، وإرادته لا تُهزم. يؤدي فروضه الدينية بالتزام، ويحب مناقشة العلماء كثيراً، ويرتدي قماشاً صوفياً خفيفاً ورقيقاً، وهذا رداء خاص بالدرأويش ورجال الدين⁽¹⁾. ويُروى أن الشعب كان يحبه باعتباره حامياً وأباً مباركاً. ونحن نرى أن هذا سبب تلقيبه خداوندكار. ويثق خليل إنالجب بأن لقبه "الغازي خداوندكار" يعود لشجاعته في الغزو، وحمايته الإمبراطورية⁽²⁾.

يعرف عن السلطان مراد الأول تعلقه بالصيد شأنه شأن الكثير من السلاطين العثمانيين. ويصف المؤرخ نشري حبه للصيد بقوله: "كان يحب الصيد كثيراً، ولديه كلاب ذات سلاسل ذهبية وفضية. وكانت صقوره هكذا أيضاً".

ومما يدحض ادعاء هامر بأنه لا يعرف القراءة والكتابة، أن "مراد" الأول أول سلطان نعرف أن لديه مكتبة خاصة. من أين نعرف هذا؟ من بعض الكتب المنسوخة من أجل مكتبته⁽³⁾.

كان السلطان مراد محباً بشدة لمولانا جلال الدين. وحظي بلقب "هنكار" و"خداوندكار" نتيجة ذبوع حبه العميق له. لهذا السبب، أمر بخياطة قبعة من قطع ثوب عائد لمولانا جلال الدين بخيوط ذهبية، وصنع منها تاجاً، ولف عليها لفة مدورة⁽⁴⁾. وتمت المحافظة على هذه الرأسية في مقبرته في بورصة حتى مطلع القرن السابع عشر، حتى إن بعض السلاطين العثمانيين اعتمروا تلك القبعة

(1) ديمتري كانتمير، تاريخ صعود الإمبراطورية العثمانية وانهارها، ترجمة أوزدمير تشوبان أوغلو، أنقرة 1979، منشورات وزارة الثقافة، ص 43.

(2) خليل إنالجب، مراد الأول، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 163.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الأول، الطبعة الثانية، إسطنبول 1975، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 497. ومن أجل المزيد من المعلومات انظروا إلى: سهيل أنور، مكتبة الفاتح الخاصة، عالم التاريخ، عدد خاص بالفاتح، أيار 1953، ص 9-10. برأي أنور، إن "مراد" الأول لم يكن جاهلاً كما يُعتقد (اعتماداً على قصة أنه ضغط بإصبعه فظهرت الطغراء لأنه لا يُوقع)، وكان عالماً إلى درجة أنه يقرأ أصعب الكتب العربية، ولديه مكتبة خاصة.

(4) بديع شهبوار أوغلو، أيام السلاطين العثمانيين الأخيرة وموتهم، مجلة التاريخ التركي الموثقة، العدد 6، آذار 1968، ص 79.

على اعتبار أنها تاج السلطنة.

وعرف عن السلطان مراد تفضيله ارتداء ثوب أبيض مزين بالأحمر. وكانت القبعة التي يعتمرها مذهّبة، وتبرز أطرافها بمقدار إصبع عن اللفة.

نرى أن تنظيم الأخويات المستمر منذ الغازي عثمان قد قطع مرحلة جديدة في عهده. ويخبرنا المؤرخ إسماعيل حقي أوزون تشارشلي بأن مراداً كان رئيس أخوية⁽¹⁾. ونرى خصوصيته هذه عندما لم يحتفظ بأي من الهدايا المرسلة له عند زواج ابنه الأمير بيازيد من ابنة علي بيك غرميان أوغلو، وتوزيعها كلها على السادة ورجال الدولة والعلماء والفقراء. وجاء في إحدى الوقفيات: "لفتت وسط أخي موسى بالحزام الذي لّفّه الإخوة على وسطي"⁽²⁾.

أعطى مراد الأول أولوية لفتح روملي (البلقان)، وخطط لتكون أدرنة العاصمة الثانية، وحقق تفوقاً على الإقطاعيات الأخرى في الأناضول، وبهذا يظهر لدينا أول مشروع للإمبراطورية العثمانية⁽³⁾.

في حي طوبخانة البورصي، وإلى الأعلى من قبري الغازيين عثمان وأورخان بقليل هناك جامع يسمونه جامع الشهادة. تقول الروايات إن خداوندكار "مراد" الأول أقام صلواته الأخيرة قبيل انطلاقه إلى حرب كوسوفو في هذا الجامع الذي أمر ببنائه عام 1389. وعندما استشهد في المعركة، استلهم اسم الجامع من شهادته، فسمي جامع الشهادة.

(1) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، ثكنات الجيش الرسمي في تشكيلات الدولة العثمانية، أنقرة 1985، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 147.

(2) انظروا إلى: نجدت صقا أوغلو، "مراد الأول (خداوندكار) موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم"، المجلد الثاني، إسطنبول 2008، منشورات "Yapı Kredi" بنك البناء والقروض، ص 235.

(3) إنالچق، مصدر سبق ذكره، ص 163.

أول الشعراء: بيازيد الصاعقة (1402-1389)

كان سلطان سلاطين مثل سام⁽¹⁾.

أوليا چلبى

هل تعلمون سبب بناء مسجد ألو مركز الجذب في بورصة؟ إليكم قصة هذا الجامع، فالروايات تفيد أن بيازيد الصاعقة نذر بناء عشرين جامعاً من مال غنائم الحرب إن قدر له النصر في معركة نيولوس، وهذا ما كان، وعمل مع رجاله على تحديد الأماكن التي ستبنى فيها هذه المساجد. بعد فترة، اكتشف بيازيد الصاعقة صعوبة بناء عشرين جامعاً، وطلب من المحيطين به إيجاد حلّ له. فوجدوا أنه تحدث في نذره عن عشرين قبة، وأقنعوه أنه إذا بنى جامعاً بعشرين قبة يكون قد أوفى بالنذر، وهكذا ظهر جامع ألو.

اشتهر الأمير بيازيد بصفته قائداً عسكرياً عندما غير سير المعركة في مواجهة الصرب في فيافي كوسوفو، واختاره رجال الدولة سلطان سلاطين من دون تردد عندما استشهد والده غيلة، وبهذا انتزع حقه بالعرش بقوة ذراعه. وقد أثبت للعالم أجمع نجاحه بانتصاره الأكبر في نيولوس. حظي بلقب "الصاعقة" لأنه قاد قواته من الأناضول إلى روملي، وبالعكس بسرعة الصاعقة. ويروي أوليا چلبى قصة هذا اللقب على النحو التالي:

عبر بيازيد الصاعقة من سينوب إلى إفلاك بسنة واحدة، ولأنه لحق بوالده السلطان سبع مرات في بورصة كالصاعقة قال له: "يا بيازيد، أنت أصبحت صاعقة". وصار اسمه بيازيد خان الصاعقة.

بيازيد الصاعقة عسكري جريء إلى درجة أنه تسلل وحيداً من بين صفوف

(1) والد البطل الأسطوري لدى الإيرانيين زال. وهو شهير بمصارعته وبطولته.

الجيش الصليبي الذي يحاصر قلعة نيبولوس، وأوصل شخصياً خبراً لقائد القلعة ضوغان بيك. تروي الكتب صفاته على النحو التالي: أحمر البشرة مع ميل إلى اللون البرونزي (حسب كبير الفلكيين كانت بشرته بيضاء مائلة إلى الحمرة والصفرة)، ومستدير الوجه، وأزرق العينين مع ميل إلى اللون الأخضر، وكث الحاجبين، ومصفر اللحية، وضخم الأنف، ومخيف النظرة، ومربوع القامة، وقوي البنية. ويوصف في مصادر أخرى بأنه أشقر، وأصفر اللحية، وعائد الحاجبين، ومحمرّ الوجه، وأزرق العينين، وضخم الأنف، ومخيف النظرة، وطويل القامة، وممتلئ الجسم إلى حدّ ما.

عرف عن بايزيد حبه الجم للصيد، وقد قام بتأسيس هيئة كبيرة العدد مختصة بالصيد؛ ملتزماً بتقاليد الأسر المالكة التركية القديمة، ومنحها مكانة رسمية في بنية الدولة⁽¹⁾. وهكذا نجد أن بيازيد الصاعقة هو مؤسس هيئة الصيد التي ستصل في القصر العثماني إلى الذروة في عهد محمد الرابع. وقد جلب فرسان أوروبا المشاهير الذين هزمهم وأسرههم إلى قصره في بورصة، واصطحب هيئة الصيد العظيمة إلى الصيد في جبل ألو.

إذاً، هل يمكننا القول إن سلطان السلاطين الرابع كان محباً للصيد وبعيداً عن أنواع الرياضة الأخرى؟ كلا، فالمؤرخون يذكرون أنه كان مصارعاً، ولا يشبعون من وصف مهارته باستخدام السلاح وركوب الخيل.

تفيد المصادر أيضاً أنه كان ينظم الشعر، ولم يكن شاعراً عادياً، بل كان سلطان السلاطين متميزاً بإلقائه الجدي للشعر. ويروى أنه كان يلقي الشعر في بعض المجالس باسم "الصاعقة" الفني (إن كان يمكننا وصف هذا اللقب على أنه اسم فني. وهو أول سلطان سلاطين نعرف أن له اسماً فنياً. وانطلاقاً من قول الخبراء إنه استخدم مصطلحات شعبية في نظمه المكتوب بلغة بسيطة يمكن القول إن بيازيد الصاعقة نظم شعراً شعبياً. ونلاحظ أثر الشعر الشعبي لدى حفيده مراد الرابع. ولكن، لم يصلنا أي نموذج من شعره.

(1) وصفي ماهر قوجا تورك، السلاطين العثمانيون، الطبعة السادسة، أنقرة 1968، منشورات دار أدبيات، ص 61.



هذه المنمنمة من هنارنامه تظهر مراسم جلوس بيازيد الصاعقة في كوسوفو.

خصوصية بيازيد الصاعقة الأخرى هي أنه أول السلاطين العثمانيين الذين حاصروا إسطنبول؛ وهو لم يكتف بحصارها مرة واحدة فقط. وحين كانت على وشك السقوط في الحصار الثاني، فك الحصار إثر قبول الإمبراطور البيزنطي تأسيس حي إسلامي في إسطنبول، وبناء جامع، وتعيين إمام وخطيب لهذا الجامع، واستقبال قاضٍ لرعاية شؤون المسلمين القانونية. جُلب المسلمون الأوائل في إسطنبول من غوينوك وينجة التابعة لطاراقلي، وأسكنوا هناك. ولكن الإمبراطور أخرج المسلمين من المدينة، وخرّب الجامع إثر هزيمة العثمانيين أمام جيش تيمورلنك في أنقرة عام 1402.

ويقال إن بيازيد الصاعقة أول من لبس السراسر (وهو فراء قيم مطرز بالحريز والذهب والفضة)، وتناول الطعام من أطباق ذهبية وفضية. وبرأي كبير الفلكيين الشيخ أحمد، ارتدى بيازيد الصاعقة قفطاناً مخملية مزهرة بورصية. وثمة قناعة عامة أنه أول من لبس المخمل المطرز بالذهب الخاص بالحكام، وأول من احتسى الكحول في الأسرة العثمانية المالكة⁽¹⁾. أما طراز لفته فقد

(1) مدحت سرت أوغلو، ما خلف ستارة عصر القانوني مجلة حياة التاريخية، العدد 1، كانون الثاني 1976،

كان على نسق لفة والده وأجداده. ويقال إنه أهدى الفرسان الألمان والفرنسيين والإنكليز الذين أسرهم في نيبولوس لفات من القماش البورصي عند عودته. ومنذ أوائل القرن الرابع عشر، بات القماش العثماني رائجاً في باريس حسب أطروحة "Rouillard" للدكتوراه المكتوبة باللغة الفرنسية.

لتحدث عن علاقته بالطرائق الدينية أيضاً. كان صهره أمير سلطان أحد أقطاب بورصة، وهذا أحد أتباع الطريقة البيروية. ويُروى أن بيازيد الصاعقة لم يكن متميماً إلى طريقة صهره، بل إلى الطريقة الزينية التي كانت مؤثرة في عهده⁽¹⁾.

في نهاية حديثنا، لا بد من إيراد معلومة غريبة، فقد قيل إن بيازيد كان يتوضأ من بركة كبيرة مصنوعة من الفضة. ليس هناك ما يدعم هذه المعلومة ويؤكد صحتها، ولكن، ألا تظهر البركة والنافورة الموجودتان في وسط جامع ألو بشكل كاف شغفه بالماء؟⁽²⁾.

ويقال إن بيازيد انتحر بالسم الذي كان يخفيه في خاتمه، بعد أن وقع بأسر تيمورلنك، إلا أن هذه القصة صعبة التصديق وتطرح سؤالاً حول عدم احتياط أسريه؛ وخصوصاً أنه قد مرّت عليه أسابيع وهو مأسور. ولا بد من القول إن بيازيد سواء أنتحر أم حرر من الأسر كان سيعد ميتاً من الناحيتين السياسية والمعنوية نتيجة مرّ الذل الذي أذاقه إياه تيمورلنك، وبالتالي لا تعود فرضية موته مقهوراً مستبعدة.

بعد وفاته، دفن مؤقتاً في مقبرة السيد محمود حيراني، ثم أبلغ تيمورلنك موسى چلبی أن يشيخ والده بمراسم جنازية سلطانية، ويدفنه بجوار الجامع والمدرسة الدينية (كُلية الصاعقة) التي بناها في بورصة بموجب وصيته. إثر ذلك، نُقل الجثمان إلى بورصة، ودفن في المكان المذكور⁽³⁾.

(1) انظروا إلى: حسن ألكسة، الحكام المتصوفون في التاريخ التركي، إسطنبول 2004، منشورات (أوكول/مدرسة)، ص 82.

(2) يحيى بستان زادة، التاريخ الصافي، ص 48.

(3) دُنْدَار آقونال، بروتوكول الدولة العثمانية ومراسمها: المراسم الإمبراطورية، إسطنبول 2004، منشورات كتب تاريخ الفكر، ص 159.

السلطان المصارع: محمد الأول (چلبى) (1421-1413)

لعل إنجازات محمد چلبى تبدو خافتة مقارنة بإنجازات
حفيدة السلطان سليم القاطع (ياووز)، أو إنجازات سميه
محمد الثاني خان الفاتح، ولكنها أهم في ما لو أخذت
الأوضاع العامة بعين الاعتبار.

عبد الرحمن شرف بيك

يُذكر محمد چلبى باعتباره المؤسس الثاني للدولة العثمانية إثر إخراجها
من كبوة مرحلة تيمور، وإنهائه الفوضى. ويوصف بأنه مربع القامة، وداكن
اللحية، ومستدير الوجه، وعريض الصدر. أما مصادر أخرى فتصفه بأنه عريض
الجبهة، وأسود العينين، وعاقد الحاجبين، وكث اللحية، وعريض المنكبين،
وهزيل البنية⁽¹⁾. ولكن شخصاً هزيل البنية لا يمكنه أن يكون مصارعاً كما سنرى
لاحقاً. أما هامر فيصفه بأنه السلطان العثماني المحبب: فتناسق جسده، وذائقته
السليمة، ومواقفه اللبقة تجعله شخصاً نخبياً. كانت نظرته حادة كالنسر، وكان
قوياً جداً كالأسد.

يقال إنه كان يصنع أوتار الأقواس في صغره، لهذا كان يُلقب الوتار⁽²⁾.
ولكن هذا اللقب يرد في مصادر أخرى "المصارع"⁽³⁾. وقد سمّي في بعض
الكتب "چلبى المصارع"، ويعود سبب ذلك إلى أنه كان يطلق على المصارع
وقتها الكلمة الفارسية "كوشتگير"⁽⁴⁾. فهامر مقتنع أن "محمد" چلبى مصارع بكل

(1) وجدت صقاً أو غلو، محمد الأول (چلبى)، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد 2، ص 82.

(2) مير أطرال، السلاطين العثمانيون، مجلة كلية الإلهيات في جامعة أنقرة، العدد XXIV، 1981، ص 431.

(3) هناك تشابه لفظي بين كلمتي "كُرشَتشي / وتار" و"غرشتشي / مصارع" العثمانيين... المترجم

(4) متين أند، الرياضة واللهو واللعب في القرن السادس عشر، مجلة الحياة تاريخ، العدد الثاني، آذار

ما للكلمة من معنى، ويقول إن كلمة كريشجي / وتار انتقلت إلى المصادر الغربية نتيجة خطأ في الترجمة، ويضيف: "حول المؤرخون الصرب كلمة كريشجي / وتار إلى كلمتي "Kiricheld, Tzhirizla"⁽¹⁾.

ويقول آخرون إنه اشتغل حبّالاً⁽²⁾. بالرغم من الجدل حول حرفة هذا السلطان، إلا أن الثابت أنه استطاع إخراج الدولة العثمانية من مرحلة الفوضى التي سقطت فيها، وإعادة شموخها إليها بجهوده الجبارة.

شأنه شأن والده كان مولعاً بالصيد، وقد كانت عاقبة ولعه هذه وخيمة، فقد وصلنا أنه سقط عن حصانه أثناء مطاردته خنزيراً برياً في رحلة صيد في أدرنة، وتأذى عموده الفقري، فأصيب بالشلل، ثم توفي. قد ورد في القيود أنه شارك في أربع وعشرين معركة، وأصيب أربعين إصابة. (لم تكن إصابات السلاطين العثمانيين الأوائل وحوادثهم قليلة بسبب خوضهم المعارك مع أعدائهم. فعلى سبيل المثال، من المعروف أن "مراد" الثاني كان أعور لإصابته بسهم، كما أن السلطان الفاتح أصيب بركبته أو فخذه في حملة بلغراد).

يعتبر محمد چلبی من أهم الفرسان العثمانيين. وقد شكّل فصيلين من الفرسان المهرة الذين جمعهم من أماصيا ومرزيفون عندما كان والياً عليهما، وجعل الفصيلين في إطار منظم، وكان الفصيلان يخوضان المسابقات، ولهما مشجعون من أوساط القصر. ومع الزمن، تحول الفصيلان إلى ناديين رياضيين، واتخذ المرزيفون من الملفوف شعاراً لهم، أما الأماصيون فكانت البامياء شعاراً لهم، واستمر التنافس بين هذين الفريقين حتى القرن التاسع عشر⁽³⁾. حتى إن السبيل الذي أنشأه محمد چلبی، ويقع اليوم أمام مديرية الشرطة في تشنغل كوي في إسطنبول، وفي قمته ملفوفة ذكرى من ذلك التنافس الأزلي. لا بد أن الملفوف المرمري قد وضع فوق السبيل بعد انتصار جماعة الملفوف في

(1) هامر، تاريخ العثمانيين الكبير المجلد الأول، إسطنبول 1989، منشورات أوتشفال، ص 405، وص 584، الملاحظة 1.

(2) أبيض طان إري، الحكم في مرحلة تأسيس الدولة العثمانية، وتطور المؤسسة، وتنظيم حياة القصر. أنقرة 1978، منشورات كلية اللغات والجغرافية والتاريخ في جامعة أنقرة، ص 104.

(3) متين أند، أنواع الرياضة التركية القديمة سكاي لايف، 1/2004، ص 122-124.

إحدى المباريات.

ومن المعروف أيضاً أن السلطان "محمد" چلبى كانت لديه مكتبة خاصة. زار المؤرخ العربي الشهير ابن عربشاه أدرنة في عهده، ودخل قصره، وحظي بإحسانه ومجااملته. ومن المعروف أن ابن عربشاه وقع على ترجمات كثيرة أنجزها خلال سنوات إقامته في أدرنة، حتى إنه حضر اجتماعات الديوان العالي، وعينه السلطان كاتباً له. وبعد وفاة السلطان، عاد ابن عربشاه إلى القاهرة⁽¹⁾. وقد أنجز ترجمة تفسير أبي الليث السمرقندي أثناء إقامته في القصر، وأهداه لمحمد چلبى⁽²⁾.

برأي المؤرخ خير الله أفندي، كان محمد چلبى موهوباً بالكتابة والشعر. وكان يهوى الشعر، وكانت رعايته للعلماء واحترامه لرجال الدين عظيمين⁽³⁾. حسب هارميين، إن إعداد صرة الحج السلطانية المتضمنة الهدايا وموكبها غدوا تقليداً في عهده، واستمر في أصعب الظروف المالية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى⁽⁴⁾. ولكننا لا نعرف نوع الهدايا التي كانت ترسل في الصرة، وعلينا أن نتظر عهد بيازيد الثاني لمعرفة هذا.

حسب مدونة تتعلق بلباس محمد چلبى، كان يرتدي أطلس رقيقاً أحمر فوقه ديبا (الديبا قماش ثقيل من الحرير أو المخمل مطرز بالذهب والفضة). واعتماداً على هامر، لا بد لنا من الإقرار بأنه كان يعتمر لفة مختلفة عن لفات أجداده. كان يلف القماش الرقيق حول قبعته طبقات؛ مشكلاً بروزات عديدة، ولا يبقى ما يظهر من القبعة سوى رأسها. وكان تفصيل قفطانه يشبه قفطانات السلاطين الذين سبقوه، ولكن البطانة استبدلت بفراء سمور في الفترة الأخيرة،

(1) طان إري، مصدر سبق ذكره، ص 167-168.

(2) هدايت أيدار، ترجمات القرآن وتفسيره في العهد العثماني، الحياة القرآنية، العدد 13، تموز - آب 2010، ص 47.

(3) خير الله أفندي، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الثالث، إعداد ظهوي ضانثمان، إسطنبول 1971، منشورات "صون حوادث/ الأحداث الأخيرة"، ص 193.

(4) عبد الرحمن شرف، تاريخ الدولة العثمانية، إعداد موسى ضومان، إسطنبول 2005، منشورات "غوك قبة/ قبة السماء"، ص 99.

وُثِّبَت الفراء على أطرافه أيضاً⁽¹⁾.

بالرغم من أن أياً من السلاطين العثمانيين لم يحج، إلا أن هناك رواية تفيد أنه عزم على الحج عندما كان أميراً، ويرد هذا في كتاب المؤرخ يحيى أفندي بستان زادة⁽²⁾. بالإضافة إلى محمد جلبي، عزم بيازيد الثاني، وعثمان الفتى، والأمير قورقوت على الحج، ولكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك لأسباب مختلفة. ويعتبر جم سلطان الوحيد من بين رجال الأسرة الحاكمة العثمانية الذي حج إلى مكة.

ولا يهمل يحيى بستان زادة إبراز الجانب الخير والمتواضع لدى محمد الأول:

"لكثرة هوسه بعمل الخير كان يأمر بطهي الطعام من ماله الخاص مساء كل جمعة، ويوزعه بنفسه على الفقراء. وإحسانه غير المحدود أفرح اليتامى ومكسوري خاطر".

(1) هامر، مصدر سبق ذكره، المجلد 1، ص 406. كان الفراء لا يوضع قديماً على وجه القفطان، بل داخله

لكي يدفئ، ولكن قسماً منه يظهر على الياقة، ويسمى هذا: "قلب الفراء".

(2) يحيى بستان زادة، التاريخ الصافي، ص 53.

السلطان الحكيم: مراد الثاني (1421-1451)

تُرجمت كتبٌ كثيرة من العربية والفرنسية إلى التركية في عهد مراد الثاني، وكان عهده عهداً مهماً على صعيد تطوير الثقافة التركية.

خليل إنالجي

يُوصف السلطان مراد الثاني بأنه مربع القامة، ومستدير الوجه، وعريض الصدر، وأشهل العينين، ومحمّر اللحية. رآه الرحالة "Bertrand de la Broquiere" في أدرنة عام 1432، أي عام ولادة الفاتح، وصوره على النحو الآتي: كان ممتلئ الجسم، وقصير القامة، ومستدير الوجه، تترى الملامح، وأسمر البشرة، وصغير العينين قليلاً. عظمتا وجنتيه بارزتان، ولحيته مدورة... كنتُ أسمع صوته الجهوري وهو يتكلم مع معيته.

مع عهد مراد الثاني بدأنا نتلقى بشائر النموذج النمطي للسلاطين. فقد كان الاستمتاع بالموسيقى والشعر، ورعاية الفنانين - وخاصة الموسيقيين والشعراء - من بين الخصوصيات التي تميز هذا النموذج الذي سيستمر قروناً. ما يعزز أدلتنا على حب مراد الثاني للموسيقى والشعر هو اهتمامه الكبير بهذين الفنين اللذين حققا تطوراً كبيراً بدءاً من عهده. ونعرف من شهادة "Bertrand de la Broquiere" مستشار دوق برغونيا في العام 1433 بوجود الشعراء العازفين في قصر أدرنة. وقد استمع إلى ملاحم البطولة التي ألقاها الشعراء العازفون⁽¹⁾. طوال فترة توليه الحكم التي دامت ثلاثين سنة - ما عدا فترتي انقطاع

(1) بولند أقصوي، حول علاقة الموسيقى التقليدية باعتبارها ثقافة عليا، بموسيقى الثقافة الدنيا بريكم/ مخزون، العدد 71-72، آذار - نيسان 1995، ص 211.



وصية مراد الثاني بالاتبني قبة فوق قبره.

قصيرتين ترك العرش فيهما لابنه - توافد الموسيقيون إلى البلاط العثماني من كل حذب وصوب. فعلى سبيل المثال، قدّم أستاذ الموسيقى الكبير في الشرق عبد القادر ميراغي الفارسي نسخة من كتاب نظريته الموسيقية مقاصد الألحان هدية لمراد الثاني، وهي موجودة اليوم في جناح "إيروان" في قصر طوب قاب. إذا استثنينا تنازل الغازي عثمان عن العرش لابنه أورخان بسبب مرضه، فإن "مراد" الثاني هو سلطان السلاطين الوحيد الذي وقع على وثيقة التنازل عن العرش لغيره بإرادته. لقد ترك العرش لابنه محمد مرتين، لهذا مكانته فريدة في

الأسرة المالكة العثمانية. (سنرى أن مصطفى الأول عاش وضعاً مشابهاً، ولكن يجب ألا يغيب عن نظرنا أنه كان مريضاً).

يقول كبير الفلكيين: "كانت أثوابه مثل أثواب أجداده الكرام". مذكراً بأنه لم يبد اهتماماً بأن يكون مختلف الهندام. ويكتب الرحالة الفرنسي "Bertrandon de la Broquiere" الذي قابل "مراد" الثاني عندما كان بصحة جيدة أنه كان يرتدي فراء وسترة من المخمل الأحمر، ويعتمر قبعة من الفراء وهو يجلس على فراء عرشه. ولن يترك السلاطين العثمانيون عادة وضع قبعات الفراء حتى عهد الفاتح.

اشتهرت جلسات مراد الثاني في المياه الكبرى أيام إقامته في بورصة؛ حيث كان العزف والغناء والرقص، وشرب عصير الرمان، وأكل الأغنام المشوية مرافقة لتلك الجلسات حتى الصباح.

نرى أن "مراد" الثاني أول من اعتبر الشعر عملاً جدياً بين السلاطين العثمانيين. وقد استخدم اسم مرادي الفني اسماً مستعاراً له في قصائده. وبحسب ما ورد في مذكرات لطيفي، نادراً ما كان يلقي الشعر، ولكنه يستمع بانتباه وتقدير للقصائد التي تلقى مرتين في الأسبوع؛ حيث يجمع الشعراء والعلماء، ويعين مناقشين يناقشون موضوعاً كل أسبوع⁽¹⁾.

في عهده أيضاً بدأ تقليد منح الشعراء رواتب، وقد استمر تقليد التشجيع هذا قرابة قرن حتى عهد القانوني؛ عندما ألغاه الصدر الأعظم رستم باشا لاعتباره أن للأمر محاذير (1544).

يُقدّم أحد أساطين الشعر العثماني سهي بيك في خاطرة شهيرة هذا التقييم الهام لموهبته الشعرية:

يسمّون السلطان "مراد" في تاريخ آل عثمان أبو الخير. ولم يكن هذا الاسم غريباً عن سلطان تيسر له الخير. لقد كان سلطاناً متمكناً من النظم ويكتب شعراً يعبر عن مزاج جميل ولطيف.

(1) مذكرات لطيفي إعداد مصطفى إسّن، أنقرة 1999، منشورات آقچاغ/العصر الأبيض، ص 68-69.

في كثير من الأحيان عبّر عن مشاعره شعراً. وفي ما يلي نورد غزلاً ينسب إليه:

حلمت ليلة أمس بحبيب كالروح
 رأيته عليلاً ذاوي البطن فيه أثر روح
 أخذت شفته العليلة بين شفتي
 هذا دواء الروح يا طبيب القلوب
 أدرنة مسكن الجميلات يا صديقي
 ورأيت في بورصة فائنات كثيرات
 ذبت فجأة الليلة في قبلوجا حين
 رأيت فتاة ممشوقة تتمايل بدلال
 بينما كنت سلطان الآفاق يا مرادي
 صرت أسير جميلات مكبلاً بذوائبهن

انتبهوا لتعبير سلطان الآفاق الذي استخدمه في البيت الأخير. لقد استخدمتُ هذا التعبير بحبّ في كتاب كتبه حول السلطان محمد الفاتح للتعبير عن بعده العالمي.

أطلقتُ بعض المصادر على مراد الثاني لقب "السلطان الحكيم" بسبب تصرفه الناضج والواعي بتنازله عن العرش مرتين لابنه محمد. لقد شهد عهده أهم الخطوات على صعيد الحياة الثقافية العثمانية؛ وخاصة على صعيد الفلسفة السياسية. هذه ليست مصادفة، بل حركة واعية. لقد أخذ دروساً من ابن عرب شاه الذي ورد ذكره أعلاه؛ والذي يوصف بأنه أحد كبار علماء ذلك العصر، فضلاً عن تلقيه تعليماً جيداً.

وفي الوقت نفسه، شهد عهده ولادة إحدى حضارات الكتب الكبرى في العالم. يُفهم من بعض المصادر أنه كان يمتلك مكتبة شخصية، وله مساهمات كبيرة بنسخ الكثير من الكتب القيّمة. والأهم في الأمر أن ذلك الموقف كان "عن وعي". ويُرى أنه سرّع في جمع الملاحم القومية والدينية القديمة، وكتابة

أعمال من هذا النوع بوعي لدورها السياسي والاجتماعي⁽¹⁾.
اهتم بالكتب السياسية من كلاسيكيات الثقافة الشرقية، وشكّل بداية استيقاظ الوعي الإمبراطوري في الأسرة المالكة. تكليف مراد الثاني لأحمد مرجيمك أحد مثقفي عصره بترجمة كابوس نامة دليل حقيقي على اهتمامه بالثقافة. وقد أمر بإعادة ترجمة ذلك الكتاب بسبب عدم فهمه عند قراءته، وطلب من أحمد مرجيمك أن يترجمه إلى التركية "بعبارات واضحة". غير هذا، إن كتاب بدر ديلشاد الموسوم "مراد نامة" يتضمن ترجمة حرة لكليلة ودمنة إضافة إلى نصائح مختلفة تم تكييفها مع المجتمع العثماني⁽²⁾.

لنأت إلى اهتمامه بالطرائق الدينية... تزامن انتشار الطريقة المولوية بين العثمانيين إلى جانب الطريقة الزينية في عهده. علاقته القريبة من الحاج بيرم ولي، وإعفاؤه دراويش البيرمية من الضريبة ساعدا بانتشار هذه الطريقة في الأناضول. يذكر "Fr. Georgius de Hungaria" الذي بقي أسيراً لدى العثمانيين بين عامي 1435-1458 أن لمراد الثاني علاقة قوية بالدراويش⁽³⁾.

أملى مراد الثاني وصيته قبل وفاته بخمس سنوات، وصدقها لدى علماء عصره، وطلب ألا تسدد نفقات دفنه من خزينة الدولة، ويبيع "خاتمه ذي حجر الياقوت الأحمر المثقّب بوزن مثقال" و"خاتمه الألماسي"، أو رهنهما إذا لم يُباعا لتسديد نفقات الجنازة، وطلب أن يكون سقف القبر مكشوفاً دون قبة: "لا تبنا لي ضريحاً كما يبني للسلاطين العظماء. لا تبنا سوى جدار على أربعة أطراف قبري. لا تسقفوا فوقي لكي يهطل المطر رحمة الله فوقي". وبموجب وصيته ترك قبره في الكلية المرادية في بورصة مكشوفاً.

(1) انظروا إلى: التركي العظيم مصدر سبق ذكره، ص 99. تابع حفيده السلطان جم عملية جمع الأساطير، وجمع أديب ذلك العصر أبو الخير الرومي مناقب "سلطوق الأشقر". ويعرف هذا العمل باسم: "سلطوق نامة".

(2) انظروا إلى: آدم جيهان، "مرادنامة بدر دلشاد" المجلد الثاني، إسطنبول 1997، منشورات وزارة التربية القومية.

(3) خليل إنالجي، "مراد الثاني"، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 171.

الشغوف بالخرائط: السلطان محمد الفاتح (1443-1444 و 1451-1481)

أكثر ما يلفت الانتباه فيه طباعه، وجبهته العريضة الصافية،
وعينه البراقتان الرائعتان، وأنفه المقوس الشبيه بمنقار
الصقر فوق فمه الصغير جداً دائم الحركة الأحمر ناهض
الطرفين. كأن تلك العلامات حُفرت لتكون دليلاً واضحاً على
مميزاته العظمى؛ كذكائه الحاد، ونظره الثاقب، وحلمه، وأخلاقه
السامية المجبول عليها، ومتعته بالإدارة، وموهبته الحربية⁽¹⁾.

نامق كمال

توصلتُ من خلال استطلاع أجزئته بنفسي إلى أن للسلطان محمد الفاتح
مكانة فريدة لدى الناس. ثمة سلاطين آخرون محبوبون أيضاً كسليم الجبار
والقانوني وعبد الحميد، ولكن الفاتح يتقدمهم بفارق كبير. السبب الأهم لهذا
هو فتحه إسطنبول، وتحقيقه بشرى سيدنا محمد ﷺ. السبب الآخر هو إطلاق
لقب أبو الفتح عليه. ضاعف السلطان محمد الفاتح مساحة الدولة العثمانية
بفتوحاته في البلقان والأناضول ومنطقتي البحرين المتوسط والأسود، وبتنظيماته
السريعة جعلها إمبراطورية حقيقية.

بحسب المصادر، كان السلطان محمد الفاتح مربع القامة، وعريض العظام
والكتفين. جسده من الخصر إلى الأعلى طويل بعكس النصف الأسفل من جسده؛
شأنه شأن الغازي عثمان، ووجهه أبيض محمر، وحاجباه مقوسان، وشعره أجعد،
ولحيته سوداء، ورقبته غليظة وقصيرة، وأنفه رفيع وطويل مقدمته تتجه نحو الأسفل
مثل منقار النسور.

(1) نامق كمال، الأوراق المتعبة إعداد: رائف قراضاغ - عمر فاروق هارمان، إسطنبول، بلا تاريخ، جريدة
ترجمان، سلسلة 1001 من أمهات الكتب. ص 111-112.

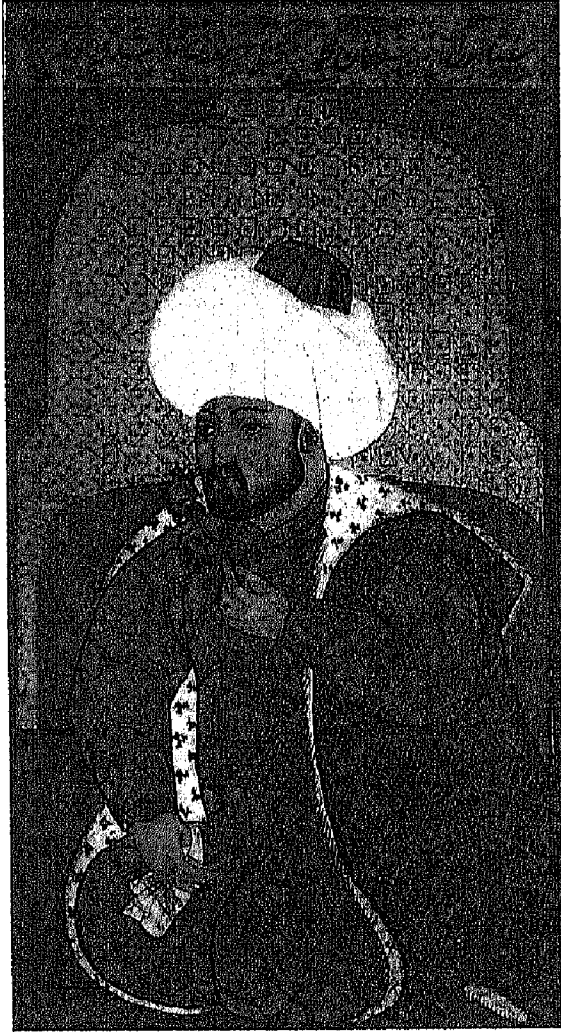
ولكن، لا بد أن هذا الوصف للفاتح يصفه عندما تقدم به العمر، لأن لا أحد حتى اليوم تمكّن من رسم صورة له عندما فتح إسطنبول وهو في الحادية والعشرين من عمره. من المؤكد أن لحية الفاتح لم تكن قد نبتت بعد وقتئذ. وإن نبتت فستكون في بدايتها. أي إن الرسامين لم يتمكنوا من رسم الفاتح الشاب. ولوحة جنتيل بليني الشهيرة تعود إلى أعوام حياته الأخيرة (من المحتمل أن تكون قد أنجزت في العام 1480)، وفي مرحلة ضعفه الشديد بسبب المرض. ونذكر من منمنمات النقاشين عثمان وشيلبلي أوغلو المرسومة في وقت أسبق أنه لم يكن ضعيفاً إلى ذلك الحد.

تلقى الفاتح العلم على يد كبار علماء العهد وموظفيه؛ أمثال تمجيد أوغلو، ومحمد چلبلي زادة، والملا إلياس، وإبراهيم قصاب زادة، والملا غوراني. واحترم العلماء دائماً، واعتقد بسمو مكانة العلم. ونتيجة لاحترامه العلماء أخضع لباس سلطان السلاطين للإصلاح، ولف لفة لتحل محل قبعة الفراء التي كان أجداده يعتمرونها. ويصفه الشاهد البندقي المدعو زورزي دولفين أنه قليل الضحك، وذكي، ومجدد، وكريم، وذو عزيمة لا تلين في سبيل الوصول إلى غايته، وحريص على قراءة الكتب يومياً. كان يقرأ كتب تاريخ روما، وحياة البابوات، وتاريخ هيرودوت، والكثير من كتب التاريخ، ويستمتع للقراءة⁽¹⁾.

كان الفاتح يرتدي سترة مطرزة بالذهب فوق أطلس أحمر. ويظهر في لوحة بليني مرتدياً فراء من دون كمين، وقفطاناً أحمر، وعلى الأغلب أن الرسم رسم في الشتاء.

هوايته الأخرى التي وصلت إلى درجة الشغف هي الخرائط. كان طبّاعو البندقية في عصره يتسابقون لكي يقدموا له خرائط تحظى بإعجابه. وقد أمر بترجمة كتاب "Geographica" الشهير لبطليموس إلى العربية، وكلف أميروتزيس وابنه الذي أسلم وأسمى نفسه "محمد" بإعداد خريطة للعالم. غير هذا، وصلتنا خريطة قيّمة لإسطنبول أعدت في عهد الفاتح وطبعت في أوروبا في زمن سليم الثاني، ونعرف أن تلك الخريطة أعدت في عهد الفاتح وبأمره شخصياً.

(1) نجدت صفا أوغلو، محمد الثاني (الفاتح)، موسوعة حياة العثمانيين وأعمالهم، المجلد 2، ص 86.



منمنمة تظهر الفاتح وهو يشم الورد من كتاب سيد لقمان قيافة الإنسانية في شتائل العثمانية.

والشخص الذي يمتطي الحصان في مقدمة الرسم هو الفاتح نفسه⁽¹⁾. وجود كتابين في الموسيقى كتبا على اسم الفاتح في متحف قصر طوب قاب دليل على الاهتمام الذي أولاه للموسيقى. قربه من مولانا عبد القادر الذي برز بعلم الأدوار الموسيقية وصل إلى درجة جعلت الصدر الأعظم "محمود" باشا يشعر بالغيرة منه، وبالطريقة نفسها كان مولانا شمس الدين نحيفي الأستاذ في علم البيان وفي الموسيقى بشكل خاص من مصاحبيه في القصر؛ إلى أن ارتكب خطأ في أحد الأيام⁽²⁾. من المفيد أن نذكر أن شمس الدين نحيفي تلميذ

(1) لمعلومات أوسع انظروا إلى: سهيل أنور، حب السلطان محمد الفاتح للجغرافية، عالم الجغرافية، العدد: 1، 15 تشرين الأول 1950، ص 46-49.

(2) خليل إنالجي، الحضارة العثمانية وسيد القصر المحرران: خليل إنالجي وغونسل رندا، الحضارة العثمانية، المجلد 1، إسطنبول 2003، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 23.

الملحن الأسطوري عبد القادر ميراغي.

لكن مهارة الفاتح الفنية الأساسية وجدت مجراها المناسب في وادي الشعر. كان السلاطين العثمانيون يترعرعون على "فن الشعر" وهم أمراء، وأشعارهم تملأ الدواوين، وكانوا أساطين بالنقد؛ يتذوقون الشعر المكتوب في محيطهم ويقدرونه. ولم يقتصروا على حضور مجالس الشعراء، والاستماع لأبيات الشعر المحملة بالحكم، بل كانوا يقرأون قصائد الشعراء المتجولة من يد إلى أخرى، ويجزلونهم العطاء والهدايا⁽¹⁾.

كان الفاتح أول السلاطين العثمانيين المتميزين بشعرهم، وإذا لم يكن بين أيدينا ديوان له، فلدينا (دويون)، أي ديوان صغير. لقد قام البروفيسور جي جاكوب بطباعة هذا العمل للمرة الأولى في ألمانيا عام 1904.

الاسم الفني الذي استخدمه في شعره هو "عوني". لم يكتفِ السلطان محمد الفاتح بكتابة الشعر فحسب، بل أعطى مجالسة الشعراء، ومبادلتهم الحديث، ورعايتهم تحت جناحيه أهمية خاصة. ونعرف أن رعايته هذه لم تقتصر على الشعراء الذين يعيشون على الأرض التي يحكمها، بل امتدت إلى الذين يعيشون خارجها. ومما هو معروف أنه أرسل نقوداً إلى سلطان الشعر الشرقي في هيرات الأفغانية الملا جامي، ودعاه إلى إسطنبول، وأن الشاعر علي شير نوائي الذي يعتبر من قمم الشعر التركي في آسيا الوسطى أرسل بعض قصائده التي كتبها بلهجة چاغاتاي إلى الفاتح. وجاء في مذكرات لطيفي أنه كان يرسل للشاعر المدعو هاجة جيهان ألف فلوري سنوياً. وكان هناك ثلاثون شاعراً يعيشون من الرواتب التي خصصها لهم.

ونورد بيتاً من الشعر مشهوراً كتبه الفاتح:

اسقنا أيها الساقى، سنفقد حديقة الزنبق يوماً
ويحل الخريف، ويذهب الربيع والكُرْمُ

من بين آثاره أيضاً هذا المطلع الذي يعبر عن عداوته لأبناء قرامان:

(1) إنالجق، المصدر السابق ذكره، ص 22.



منمنمة تصور الفلكي والرياضي
علي قوشچو وهو يقبل يد
الفتاح. ونرى بيده الكتاب
الموسوم المحمدية وخلفه الأغا
حامل السلاح.

يقال إن القراماني يطيل لسانه على سلطنتنا
سأطرحه أرضاً حين أمسك به إذا قدر الهدى

الجانب الغريب في الأمر أن الفاتح الشغوف جداً بالفنون الجميلة كان يعمل
في مهن متعددة مثل صناعة الخواتم الخاصة بالرماء، وإبزيمات الأحزمة، وأغماد
السيوف. وهناك رواية غريبة تتحدث عن خبرته بالأحجار الكريمة⁽¹⁾. ويجب أن
يكون هذا بداية الشغف الذي ظهر في ما بعد لدى حفيديه سليم الجبار وسليمان
القانوني.

لم تقتصر هوايات الفاتح على ما ذكرناه آنفاً، بل نراه بستانياً ماهراً فقد

(1) يلماظ أوزطونا، سلطان السلاطين في الدولة العثمانية 3: سلطان السلاطين أعلى من كل الحكام، مجلة
الحياة تاريخ، العدد 3، آذار 1976، ص 15.

كان ماهراً بأعمال البستنة التي كان يقوم بها في حديقة القصر، وكان يخصص جل وقت فراغه للاعتناء بالحديقة، وكان شغوفاً بزراعة الأشجار والخضروات والأزهار. وبشغفه هذا وضع حجر الأساس لجمال طوره سكان القصر على مدى عصور، وبدأ آخر حلقة من حلقات فن تنسيق أزهار الحدائق الساحر في العالم.

كما أن الفاتح كان شغوفاً باللغات، ويقال إنه كان يفهم اليونانية واللاتينية إلى جانب إتقانه العربية والفارسية.

ماذا عن الطعام؟ كان الفاتح يأكل وحده، وهو من استحدث هذه العادة في القصر، كما أنه من السلاطين النادرين الذين نعرف أنواع الطعام التي يحبونها. فقد كان يستلذ بالحساء، والدجاج المشوي، والبيض، والسّمك، وفتائر الجبن، ورقائق العجين، والشيش برك، وحساء الأحشاء، والسبانخ، والعسل، والحلاوة الطحينية، والبقلاوة، والقشدة، والمهلبية، والأرز المحلى، والقطائف بالحليب. وحين نستعرض لائحة طعام الفاتح، نجد أنه كان يحب ثمار البحر، ولا يحب اللحم الأحمر كثيراً، وهناك رواية تفيد أنه كان يأكل ستريديا وقريدس⁽¹⁾، وكان يحب من المشروبات شراب العنب بالنعناع، والدبس، وشراب الجبّوب الساخن، واللبن الرائب⁽²⁾.

الرياضة أيضاً كانت على جدول أعمال السلطان الحيوي الذي فتح إسطنبول. يُعرف أن الفاتح أمر ببناء تكية (نادي) للمصارعين خلف جامع السيدة شبيصفا الواقع على يسار الطريق من أقصراي إلى أونقبان، وأوقفها⁽³⁾. وقد جُددت في أواخر القرن الثامن عشر في عهد عبد الحميد الأول، ويروي أوليا چلبّي في سياحة

(1) مدحت سرت أوغلو، ماذا كان يؤكل ويُشرب في القصر العثماني؟ أحاديث من التاريخ، أنقرة 1994، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 134.

(2) زيا إركينس، الأطعمة التي يحبها الفاتح والسلطان محمد الصياد، مجلة التاريخ الجديد، العدد 4، 29 تشرين الأول 1953، ص 171. غير هذا انظروا إلى: أحمد رفيق آلطناي، ماذا كان يأكل حضرة الفاتح؟ الموسوعة الشهرية، العدد 5، تشرين الثاني 1949، ص 70-71.

(3) إبراهيم حقي قونياي، الأوقاف وتكية المصارعين، التاريخ يتكلم، العدد 34، تشرين الثاني 1966، ص 2849-2854.

نامة أنه كان يتردد شخصياً على تلك التكية، وكان يخرج إلى الصيد حين تسنح له الفرصة⁽¹⁾.

على غرار ما فعله السلطان محمد الفاتح للمصارعين، فهو الحاكم الذي أسس منشأة للرماية، ووضع لها قواعد في المسابقات. وإذا كان الحكام الذين سبقوا الفاتح قد اهتموا بمسابقات الرماية المختلفة، فهو أول من أمر بتأسيس ساحة خاصة ومنشأة للرماية. المنشأة التي أمر الفاتح ببنائها بعد فتح إسطنبول بقي قسم صغير منها اليوم مع الأسف في حي قاسم باشا الإسطنبولي، وتدعى ساحة الرماية (أوق ميدان)، وهي دليل على شدة اهتمامه بهذه الرياضة. كل الحكام الذين أتوا بعد الفاتح تقريباً وسَّعوا تلك الساحة، وأضافوا عليها ملحقات، وحتى إنهم أسسوا منشآت للرماية ليس في إسطنبول فقط، بل في المدن الأخرى أيضاً⁽²⁾.

ولنسجل أخيراً أنه لاعب شطرنج ماهر⁽³⁾.

(1) علي همت بركي، الحاكم التركي العظيم فاتح إسطنبول السلطان محمد خان وعدله إسطنبول 1953، ص 16.

(2) أوغور إردنر، الرماية: رياضة تركية تقليدية سكاي لايف، أيار 1999.

(3) سدات قومبارجيلر، الألعاب القديمة في تركيا 2 مجلة الحياة تاريخ، العدد 1، شباط 1972.

الإمبراطورية العثمانية

أم الدولة العثمانية؟

ثمة من يستهجن استخدامي لمصطلح الإمبراطورية عن الدولة العثمانية أحياناً. صحيح أن كلمة "إمبراطورية" مشتقة من كلمة "empire" المرتبطة بكلمة إمبريالية "imperialism" وتثير في أذهاننا انطباعات سلبية، ولكنني أفضل استخدام مصطلح إمبراطورية للدلالة على الدولة العثمانية. لماذا؟

لهذا الأمر سبب بسيط جداً، وعملي: مع أن تعبير الدولة العثمانية هو الأصح، ولكن كلمة دولة في اللغة العربية، وخاصة في القرن الأخير، حظيت بمعنى واسع جداً في الثقافة الإسلامية التقليدية، وكادت أن تتطابق مع الدولة القومية. لهذا السبب، إن إطلاق مصطلح دولة على الدولة العثمانية لا يعبر عن المكونات غير القومية التي شكّلت البنية البشرية للدولة العثمانية. من الواضح أن البنية المتعددة القوميات واللغات والأديان وحتى القوانين لا يمكن أن تتسع لها الدولة القومية المعروفة. الدولة القومية تعتمد على قومية أساسية، وتعتبر الآخرين أقليات. ولكن في مصطلح الإمبراطورية ثمة تسامح بالتعددية القومية واللغوية وما شابههما، ومحافظة على تلك الصورة.

لهذا السبب، أفضل عموماً كلمة إمبراطورية على كلمة دولة عند الحديث عن العثمانية على الرغم من معرفتي لمحاذيرها. حبذا لو أن كلمة دولة حافظت على معناها الأصلي، ولم تضطر لمقابلتها بكلمة أجنبية.

معلم الرماة: بيازيد الثاني (1512-1481)

ثمة وثائق تبيّن أنه تعلم الكتابة بلغة الأويغور، ويعرف
القليل جداً من الإيطالية⁽¹⁾.

شرف الدين طوران

إذا كان السلطان محمد الفاتح قد جعل الإمبراطورية العثمانية تخفق
بجناحيها في أوروبا وآسيا، فإن ابنه بيازيد الثاني ثبت قدميها. لعنا لا نرى في
عهده فتوحات واسعة كعهد الفاتح، ولكن تركيزه كان على الفتح الداخلي وليس
على الفتح الخارجي. لقد بذل جهداً من أجل وضع الأسس التي ستقوم عليها
الدولة، وتقوية أيديولوجيتها، ولأجل هذا دعا العلماء والفنانين وشيوخ الطرائق
إلى العاصمة الجديدة، وأسس الأوقاف، وطوّرها، وهذا مهم على صعيد إبراز
عظمة بيازيد الثاني. من الخطأ الفادح اعتبار لقبه الصوفي دليلاً على التعصب
والرجعية. ومن الأنسب النظر إلى ما أنجزه بيازيد الثاني على أنه ترميم لبناء
الدولة. يقول عنه لطيفي في هذا الجانب: "سلطان سلاطين صاحب ولاية
ومفهوم ساميين"⁽²⁾.

لا بد أن أشد الافتراءات الظالمة بحق بيازيد هو وصفه بأنه لم يكن سلطان
سلاطين عالمياً كوالده. ويمكن أن يعزى ذلك إلى وقوع شقيقه جم سلطان
أسيراً بين أيدي فرسان رودس والبابا وملك فرنسا. ولكنه، شن حملة مشهورة
على البندقية عام 1495 بعد وفاة شقيقه. أما الافتراء الثاني فهو أنه خرب بعض
الرسوم التي أمر الفاتح برسمها، وباعها خارج البلد. وقد دُحض هذا حين

(1) شرف الدين طوران، بيازيد الثاني الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 5،
إسطنبول 1992، ص 237.

(2) مذكرات لطيفي، ص 71.

خرجت تلك اللوحات من القصر بعد عهده بزمن طويل. يرسم المؤرخ مصطفى علي غليبولولو السلطان بيازيد الثاني طويل القامة، وفتح الوجه، وعاقده الحاجبين الأسودين، وأشهل العينين، وحنطي البشرة، وأسدي الأنف، كما عريض الصدر. وبحسب سفير البندقية أندريه غريتي الذي تعرّف إليه فإنه أطول من متوسط، وزيتوني البشرة. يقول أندريه غريتي: "تُظهر ملامحه أنه يفكر بأمور جدية وكبيرة، وهو مكتئب وحزين". ويقدم كبير الفلكيين الشيخ أحمد أوصافه على النحو التالي: "طويل القامة، وأبيض البشرة، وأسود الشعر، وعاقده الحاجبين، وعريض المنكبين. وكان سلطان سلاطين حسن الطباع وصالحاً وعبداً ومتعمقاً بالشريعة".

ظهر اهتمام بيازيد الثاني بفن الخط منذ كان أميراً، وذكر عمله هذا في الكتاب الموسوم صواب حديقة الورد. تلقى بيازيد دروساً بالخط وهو أمير في أماصيا على يد رائد الخطاطين العثمانيين الشيخ حمد الله (كان رياضياً وصانع نبال ورامياً ماهراً سجل رقماً قياسياً بقدر ما كان خطاطاً)، وحصل على إجازته. لم يترك أستاذه بالخط في أماصيا بعد أن أصبح سلطان سلاطين، بل دعاه إلى إسطنبول، وعيّنه معلماً وكاتباً في القصر. كان يعرّج على جناح الشيخ حمد الله أحياناً، ويسأله عن أحواله، وحتى إنه كان يمسك له المحبرة وهو يخطط تعبيراً عن احترامه له، ويقول علناً إنه أسعد حكام الدنيا لأن لديه خطاطاً كهذا⁽¹⁾.

بفضل تشجيع بيازيد الثاني لفن الخط، دخل هذا الفن في مسار خاص على يد العثمانيين. كما شجع أستاذه أيضاً بمنحه إمكانيات لكي يجد أسلوباً جديداً بالخط⁽²⁾. ونعرف أنه خصص للشيخ حمد الله إيراد قريتين في صار غازي التابعة لأسكدار غير اليومية التي أمر بدفعها له⁽³⁾.

ثمة دليل في سجل لمكتبة قديمة يسمى مجموعة ألواح النقاشين على أن بيازيد الثاني اشتغل بالتذهيب. ولا بد من التنويه أن فن صناعة الكتاب الذي

(1) كمال تشغ، الخطاطون العثمانيون الأتراك، مجلة التاريخ، العدد 4، 1 حزيران 1950، ص 169 و174.

(2) علي رضا أوزجان، السلاطين الخطاطون الموسوعة العثمانية، المجلد 5، إسطنبول 1993، منشورات آغاتش/الشجرة، ص 98.

(3) أوزصاينر، مصدر سبق ذكره، ص 80.

يضم فنون الخط والتذهيب والتجليد العثمانية المكملة لبعضها بعضاً ازدهر في عهد بيازيد الثاني⁽¹⁾.

ويمكننا أن نذكر من مواهب بيازيد التلحين. فهو أول من ذكر اسمه في المصادر بين السلاطين على أنه دوّن لحناً. إلا أن الألحان التي وصلتنا من نتاج ابنه قورقوت وليست من نتاجه تجعلنا نتوصل إلى أن الموسيقى والذائقة الموسيقية قد تطورتا في العائلة العثمانية المالكة. وتعرض السطور التالية المستقاة من المخطوط المعنون أمهات الأوراد لآثاره الموسيقية:

وصلنا من آثاره الموسيقية خمسة ألحان، على الطنبور وهي: بَشْرَف أرازبار وسما الطنبور من الدور الكبير؛ بَشْرَف راحة الرواح من الدور الكبير، بَشْرَف الأوج وسما الطنبور من الدور الكبير⁽²⁾.

بالإضافة إلى ما تقدم، فقد قصده الملحن الكبير الأستاذ زين العابدين رئيس الفرقة الموسيقية لحسين بايقرا حاكم خراسان من إيران، ودخل بخدمته، وبهذا أصبح أحد الأعمدة المؤسسة للموسيقى العثمانية⁽³⁾.

هل يمكن أن يكون والد المرء شاعراً ولا تسقط على رأسه حزمة من ضوءه إرثاً؟ نحن نعرف أن بيازيد الثاني كان ينظم الشعر بالتركية والفارسية باسم "عدني" (أو عدلي)⁽⁴⁾ الفني، وله ديوان صغير مطبوع. ويعتبر هذا الديوان الصغير أول ديوان نسّقه سلطان عثماني. (لأن الكتاب المدعو ديوان الفاتح فيه من النواقص ما يجعله لا يُعد ديواناً). أسلوبه صوفي. وبحسب يحيى بستان زادة فقد تفوق على والده بالغزل. وقد عمد فؤاد كوبرولو إلى تجميع قصائده ونشرها. وبحسب ما ورد في المذكرات، إن موهبته بجمال الحديث والنظم لا

(1) مصطفى بكطاش أوغلو، فن الخط عند العثمانيين، المجلة العلمية الدينية، المجلد 35، العدد 1، كانون الثاني - آذار 1999، ص 291.

(2) الناقل: أدهم روجي أونغور، السلطان بيازيد الثاني ملحن، المجلة الموسيقية.

(3) جين أوتشان طانري قورور، الموسيقى العثمانية المحرر: إكمال الدين إحسان أوغلو، تاريخ الحضارة العثمانية، المجلد الثاني، إسطنبول 1999، ص 506.

(4) مذكرات لطيفي، صفحة 71.



بيازيد الثاني في إحدى رحلات الصيد التي كان يجيها كثيراً. الشخص الذي يركب الغزال هو والده الفاتح. تراءى لبيازيد الثاني والده المتوفى وهو يركب الغزال، ويخبره من الاستمرار بهذه الهواية. وكانت هذه الحادثة المقعمة بالأسرار درساً لبيازيد، ولم يعد يخرج إلى الصيد منذ ذلك اليوم.

نقص فيها. لقد أحب الأدب العجمي (الإيراني) كثيراً، وأبدي مجاملة كبيرة للشعراء والعلماء الإيرانيين. كما أنه كان يوظف من يكتب الشعر الجميل في قصره. بحسب ملاحظة وردت في مذكرات سخي بيك، إن قصيدة غزل للشاعر صائي وقعت بيد بيازيد الثاني بطريقة ما، وأعجب بها، وأمر بإيجاد كاتب تلك القصيدة، وعندما وجدته، وظفه في القصر كاتباً. وكان يكافئ الشعراء ويجزيهم العطاء ويحسن إليهم، واستمر بالدفع للملا جامعي ألف فلوري مثل والده. ونورد مقطوعة من الغزل الرائع الذي كتبه السلطان بيازيد الثاني كمثال:

تضربني سلاسل شعر صدغيك كأنني مجنون
كلت الروح من الهجر فالشوق يحتاج حبلا
أملتُ بدواء لقلبي العليل من مشفى شفيتك
وجدت الطبيب المأمول منه الدواء عليلا

شأنه شأن والده احترام العلماء والشعراء، واستمتع بحضور مجالس الفكر. ويرى المؤرخ إسماعيل حقي أوزون تشارشلي أن بيازيد الثاني: "جعل إسطنبول

مركز العلم الإسلامي"⁽¹⁾. وعندما كان سيد سنجق أماصيا تلقى دروساً من عالم التفسير والحديث خطيب قاسم الأماصي، وخضع لتربية وتعليم راقيين. وكثيراً ما جاء إلى جامع أيا صوفيا خلال تربعه على العرش، واستمع لخطبة عالم التفسير الشهير نيكصاري.

يمكن اعتبار بيازيد الثاني مؤسس التاريخ العثماني. فكل ما نعرفه اليوم تقريباً عن الفترة الممتدة لقرن ونصف من التاريخ العثماني يعتمد على ما دُوِّنَ في كتب التاريخ في عهده. وهذا في الحقيقة نشاط أكثر من عادي استمر تأثيره إلى يومنا⁽²⁾.

يمكننا أن نضيف بثقة إلى مزايا السلطان بيازيد الثاني أنه كان قارئاً جيداً، ويقرأ الكتب المقدمة له بتركيز. وبالطريقة نفسها، أولى أهمية كبرى لتربية أولاده، وربى الأمير قورقوت ليكون عالماً حقيقياً. ويلاحظ أن ابنه الآخر أحمد أجاد العربية والسياسة إلى درجة أنه كتب كتاباً في السياسة باللغة العربية.

وهناك شبه إجماع على أن بيازيد الثاني أكثر السلاطين العثمانيين تديناً. وكثيراً ما تذكر المصادر أنه لم يُهمل العبادات، وأنه أكثر من دفع الصدقات. وعندما أراد أن يفتتح جامع بيازيد الذي أمر ببنائه، أعلن: "ليفتتحه من لم يقطع الصلاة مع سننها في حياته"، و"ليكن إماماً في أول صلاة جمعة". وعندما لم يظهر أحد، قال إنه لم يقطع الصلاة وسننها منذ طفولته، وأدار المفتاح، وفتح الجامع. ويعتقد أن تشجيعه على نقل مراكز الطرائق الدينية والتكيات المركزية إلى إسطنبول لعب دوراً بإطلاق لقب "الصوفي" عليه.

لقد بشر جمال الدين چلبلي (توفي عام 1509) مشرف الطريقة المولوية في قونية والده بولادته، لهذا السبب احترام والده مولانا جمال الدين كثيراً، وجدد لحد قبره، وأرسل قماشاً ثميناً من أجل تغطيته⁽³⁾.

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثاني، أنقرة 1985، ص 246.

(2) خليل إنالچق، The rise of Ottoman historiography المحرر P. M. Holt و Bernard Lewis، "Historians of Middle East" لندن 1962، جامعة أكسفورد.

(3) عرفان غوندوز، علاقة الدولة بالتكية لدى العثمانيين، العثمانيون، المجلد الرابع، أنقرة 1999، منشورات تركيا الجديدة، ص 474.

ومن المعروف أيضاً أن بيازيد الثاني اهتم بالرياضة. وينقل عن الشيخ حمد الله الذي يحترمه ويحبه كثيراً: "أن بيازيد الثاني كان رامياً ماهراً، وصانع نبال. وصل شغفه بالرماية إلى حدّ اعتبر نقطة ضعفه. وقد جمع معلمي صناعة الأقواس والنبال في إسطنبول، وأقام لهم سوقاً خاصة. واستمد الشارع الممتد أمام جامع بيازيد اسمه شارع كبير الرماة من تلك السوق التي اندثرت اليوم. وقد وصل شغفه بالرماية إلى درجة أنه رجا الشيخ حمد الله أن ينصب حجراً حيث سقط سهم إسكندر طوزقوبران الرامي صاحب الرقم القياسي في عصره⁽¹⁾. وهذا يقابل رجاء رئيس الجمهورية اليوم رئيس اتحاد لعبة رياضية من أجل تكريم رياضي موهوب. واللافت أيضاً أنه أمره بالكتابة على شاهدة قبر الشيخ حمد الله العبارة التالية: رئيس الخطاطين وشيخ الرماة⁽²⁾.

ذكر سفير البندقية أندريه غريتي أن بيازيد كان يستمتع بامتطاء الخيل، وأنه لولا الألم في قدميه من جراء مرض النقرس لكانت حفلات الصيد وترويض الخيل من أهم متعه. (ظهر هذا المرض في العائلة المالكة لدى والده الفاتح وحفيده القانوني). ويضيف غريتي أن بيازيد الثاني كان شغوفاً بالأعمال الحرفية، ويحب العقيق الأحمر المشكّل جيداً والفضة المصاغة بمهارة وأشغال الخراطة. وبالإضافة إلى ما تقدم، يضيف غريتي أن السلطان كان شغوفاً بعلمي الدين والفلك⁽³⁾.

وكما هو واضح، السلطان بيازيد الثاني سلطان متعدد المزايا والمواهب، إلا أن التاريخ أوصل لنا صورة باهتة عنها. شخصياً، أفضل أن أنهي هذا القسم بشيء عن هندامه.

كانت ألبسة بيازيد الثاني الرسمية مثل ألبسة والده الفاتح. ولكنه كان يلبس

(1) أوزبيه غوفان، الأخلاق الرياضية في التقاليد الرياضية العثمانية والإجراءات القانونية ضد حرق القواعد الرياضية، الوطن التركي، العدد 148-149، كانون الأول 1999 - كانون الثاني 2000، ص 367-368.

(2) أوغور درمان، في الذكرى الثلاثين لوفاة رئيس الخطاطين كامل آفديك، مجلة الحياة تاريخ، العدد 7، آب 1971، ص 38.

(3) الناقل: نيكولاس فاتين، نهضة العثمانيين، إعداد: روبرت مانطران، تاريخ الإمبراطورية العثمانية 1، ترجمة سرفر طانيللي، إسطنبول 1995، منشورات جم، ص 131.

مثل أي رجل صالح عندما يكون بمفرده؛ لأنه كان يحب الفقراء والصالحين⁽¹⁾.
ونستنتج من هذا التعبير أن بيازيد الثاني كان يحب ارتداء الألبسة البسيطة،
وسنرى أن هذه الخاصية ستنتقل إلى ابنه عند الحديث عن سليم الجبار.

(1) كبير الفلكيين الشيخ أحمد، تاريخ كبير الفلكيين، المجلد الثاني، إعداد إسماعيل إرونسال، إسطنبول، بلا تاريخ، ترجمان سلسلة ألف مرجع ومرجع، ص 369.

"لأن الدولة قسمتنا من يوم الأزل"

أرسل إليه شقيقه جم سلطان من الغربية بتاريخ 17 حزيران 1482
بيت شعر دسه في غمد معبراً عن مشاعره:

لماذا تنام بالورد هائناً مع الأسرة
وأنام على الرماد في وضع مهين؟

فردّ بيازيد الثاني على أخيه بسلاح الشعر أيضاً:

لأن الدولة قسمتنا من يوم الأزل
لماذا لا تطأطي برأسك للقدر؟
حظيت بلقب حاج الحرمين
فلماذا تسأل عن سلطنة دنيوية؟

سيذكر هذا الصدام اللافت بين الشقيقين باعتباره مثلاً على تمكن
عضوي الأسرة المالكة من القلم بقدر تمكنهما من السيف⁽¹⁾.

(1) بالمناسبة، لنعرج على بعض هوايات جم سلطان الغربية الذي لم يصل إلى السلطة.
كانت شاعريته أبرز جوانبه. ولكن معرفتنا بوجود خيول ومجوهرات وبيغاء وقرود بين
إرثه المسلم لشقيقه الأكبر بيازيد الثاني يعطينا رؤوس خيوط حول عالمه الخاص.
انظروا إلى: محمد زكي باك ألن، جم سلطان، الموسوعة الشهرية، العدد 21، كانون
الثاني 1946، ص 645-649.

عثماني وحدة الوجود: السلطان سليم الجبار (1512-1520)

كان عليه أن يفتح العالم المحمدي العظيم.

يحيى كمال

بحسب التشخيص الصائب لمؤرخ عصرنا الكبير فرديناند براودل فإن حملة سليم الجبار لفتح سوريا ومصر عامي 1516-1517 هي ثاني الحملات الكبرى في التاريخ العثماني بعد فتح إسطنبول، وهي التي أبقت الاقتصاد العثماني قروناً واقفاً على قدميه. حوّل السلطان سليم الجبار استراتيجية الفتح من أوروبا إلى آسيا وأفريقيا بحملته على الدولتين الصفوية والمملوكية، وهذا فتح باب الاستفادة من مخزون الثقافة والعلم الشرقيين القديمين، وشكّل آخر المنعطفات الكبرى في الثقافة العثمانية الكلاسيكية أيضاً.

تقول المصادر إن السلطان "سليم" الجبار كان طويل القامة نسبياً، وعريض العظام، وحاد النظرات، ومستدير الوجه، وعائد الحاجبين الأسودين، وكبير الرأس، وأسمر البشرة، وجليظ الأنف، وكث الشارب، وخفيف اللحية، وقصير الجذع نسبة إلى الساقين (اعتدنا على هذه البنية الجسدية)، وممتلئ الجسم. وبحسب تاريخ صولاق زادة فهو متوسط القامة، وبدين، وأبيض الأسنان اللؤلؤية اللامعة، ومقوس الحاجبين، وقوي العضلات، وأبيض الوجه⁽¹⁾. وبحسب المؤرخ العربي ابن إياس الذي رآه في طريقه إلى القاهرة فهو دون لحية، وحنطي البشرة، وطويل نسبياً، وعريض الأنف، وواسع العينين، وقصير القامة، ومحني الظهر قليلاً. غير هذا، كان سريعاً جداً، وعند دخوله إلى القاهرة كان يعتمر لفة صغيرة

(1) تاريخ صولاق زادة، المجلد 2، إعداد وحيد تشابوق، أنقرة 1989، منشورات وزارة الثقافة، ص 1.

على رأسه، ويرتدي قفطاناً حريراً⁽¹⁾.

تقول المصادر إن نظراته مؤثرة. وكان يكرر بعض الكلمات عدة مرات بسبب ذكائه الحاد وانفعاله.

يبدو في الصورة الموجودة في قصر طوب قاب والتي تنسب إليه واضحاً قرطاً بلؤلؤة في أذنه اليسرى. إلا أنه لم يُذكر في أيّ من المصادر أنه كان يضع قرطاً كما يظهر في اللوحة، ولكن هناك رواية تفيد أنه كان يعلّق في أذنه قرطاً نحاسياً⁽²⁾. وهناك من ينسب اللوحة إلى الشاه إسماعيل بسبب التاج ذي الاثني عشر فصاً، إلا أن هذا النوع من التيجان المرصعة لم يكن موجوداً في الشرق قبل القرن الثامن عشر، وكان يوضع على الأغلب فوق اللفة، ويتمثل بعدة ريش ذات أحجار كريمة.

شأنه شأن والده، أحب الجبار البساطة كثيراً، ولم يول أهمية للمظاهر. كما لم يرغب بالإسراف في بناء قصور فخمة له. كل ما أراه هو الإبقاء على الخزينة ممتلئة.

ذات يوم، أمر دفتر دار الخزينة عبد السلام بيك بإنشاء قصر بسيط قريب من الشاطيء بين سيركجي وصار بورنو، وقام عبد السلام بتشييد قصر يال. وعندما جال الجبار في القصر ووجده فخماً جداً شعر بضيق شديد، فخاطب الدفتر دار مؤنباً: "أنا أمرتك ببناء مكان يُستظل فيه، ولم أمرك بكل هذا الإنفاق". ولكي يتخلص الدفتر دار من المأزق الذي وقع فيه، قال: "بنيت القصر من مالي الخاص، وأردت أن أهديكم إياه، وأرجوكم أن تقبلوه". وحينئذ هدأت أعصاب الجبار⁽³⁾.

نشأ الجبار في أماسيا التي تعتبر بيئة للعلم والفن، وكانت هوايته الصياغة. وقد تعلّم اللغات الفارسية والعربية والتتارية. يقول لطيفي: "كانت لديه رغبة

(1) فريدون م. إيجان، السلطان سليم الجبار إسطنبول 2010، منشورات الكنز المفقود، ص 352.

(2) بوصف سليم بأنه دون لحية ومفتول الشارب، وأنه يحب البساطة في اللباس، ويلف على رأسه لفة بطرينة تسمى سليمة، وأنه يضع في أذنه حلقة نحاسية. انظروا إلى: نجدت صقا أوغلو، سليم الأول موسوعة إسطنبول من أمس إلى اليوم، المجلد 6، إسطنبول 1994، ص 500.

(3) يوجل وسفيم، مصدر سبق ذكره، ص 144.

كبيرة بالحديث في اللغة الفارسية. غير هذا، كانت طبيعته طاهرة وتؤسس للصدقة، وتقرب من القيم الفارسية". ونعرف أيضاً أنه أستاذ ماهر بلعب الشطرنج.

كان الجبار يحب الشعر بشكل خاص مثل والده وجدته، وله ديوان بالفارسية يضم ثلاثمائة قصيدة غزل، وقد طُبع هذا الديوان عام 1890 في إسطنبول. وعندما رغب القيصر ويلهام الثاني بمجاملة السلطان عبد الحميد الثاني أعاد البروفيسور هورن طباعة هذا الديوان بحجم كبير، وأعد خمسمائة نسخة مذهبة عام 1904، وأرسلت إحداها إلى السلطان عبد الحميد. كما طبع هذا الديوان بالتركية⁽¹⁾.

الجبار هو الوحيد من أعضاء الأسرة المالكة العثمانية الذي لديه ديوان كامل بالفارسية. وبحسب أسطون الشعر لطيفي والمؤرخ صولاق زادة فإن الجبار لم يكتب شعراً بالتركية قط⁽²⁾. لهذا السبب، لا يمكن أن تكون المقطوعة التي تبدأ بعبارة "لا تعط فرصة للذئب يا رب!" المحفورة على سبيل ماء في موش من نظمه. وفي ذلك يقول لطيفي:

"أكثر الأشعار التركية المتداولة باسم المرحوم - طيب الله ثراه - هي مما اعتبرها الناس مناسبة له، أو ألفوها ونسبها له".

استخدم السلطان سليم الجبار الاسم الفني "سليمي". وثمة ادعاء بأن هذا الاسم يعود لشاعر آخر، وقد أسندت قصائده إلى الجبار بعد مقارنة بعضها مع قصائد الجبار. ولكن الأبيات التي يدعى بين الناس أنها له، وتبدأ على النحو التالي:

فظيعاً كان ما أرتته الدنيا لعيني
جعلتهما تصبان بدل الدمع دما
كان الليث يرتجف حتى مخالفه أمامي
جعلتني الدنيا عليلاً أمام عيني المها

(1) ديوان السلطان سليم الجبار، المترجم: علي نهاد طاران، إسطنبول 1946، منشورات أحمد خالد، اعتمد طاران طبعة برلين المهداة هذه.

(2) مذكرات لطيفي، مصدر سبق ذكره، ص 79.

ليست للسُلطان. والبيت التالي أيضاً ينسب له، ولكن لطيفي صاحب المذكرات المهمة بالشعراء يبلغنا أنه لشاعر يدعى نسيري وليس له⁽¹⁾:

ليس لدي لعبة سوى هذه الدنيا العجوز التي
ترتدي ثوباً كحلياً منقطاً بالذهب كل ليلة
وعلى الرغم من أنه ليس للجبار ولكنه يناسبه.

والجبار هو أول من عانى من السلاطين من ضعف في النظر بسبب كثرة القراءة، وأصبح يستخدم المكبرة. فقد كان يكتفي بنوم ثلاث إلى أربع ساعات في الليل، ويقضي بقيته بالقراءة والكتابة⁽²⁾.

غير هذا، نعرف أنه أمر الشيخ مكي أفندي بكتابة دفاع عن نظرية ابن عربي حول وحدة الوجود، وقد كتب كتاب الجنوب الغربي... بناء على هذا التكليف⁽³⁾. وخلال الفترة بين حملة مصر والعودة إلى إسطنبول، كلف شيخ الإسلام ابن كمال بترجمة كتاب ابن تغريبي بردي المعنون النجوم الظاهرة، وأن يُقدّم له على أجزاء في النزل، ويُقرأ له.

ثمة ما يدفع للبحث في العلاقة بين سعي شيخ الإسلام ابن كمال لإقرار نظرية وحدة الوجود باعتبارها قراراً دولة، وإنشاء مقام فوق قبر ابن عربي في دمشق⁽⁴⁾.

ويُروى أنه بعد فتح مصر طلب الجبار رسم خرائط لكل من الهند والصين⁽⁵⁾. لماذا طلب رسم تلك الخرائط؟ هل كان هدفه ديار الهند والصين بعد مصر؟

(1) الناقل: قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 153.

(2) إسماعيل حقي أوزون تشارتشي، تاريخ العثمانيين الجزء الثاني، ص 526.

(3) للاطلاع على هذا العمل، وتحليله، انظروا إلى: خليل بلطجي، إسطنبول 2004، منشورات غالانك/تقاليد. العبارة الواردة في الكتاب هي: بأمر السلطان سليم ابن السلطان بيازيد خان (عليه الرحمة وله الغفران) شهريار عصره الواجب، تمت تلبية هذا الوجوب بتحريره... (ص 98).

(4) وهناك فكرة مشابهة في الأعمال التي تعود إلى مرحلة شباب عبد الغني النابلسي الذي عاش في القرن السابع عشر. انظروا إلى: بكري علاء الدين: رائد عصر: عبد الغني النابلسي، حياته وفكره ترجمة فيسل أويصال، إسطنبول 1995، منشورات إنسان، ص 211.

(5) يشار يوجل وعلي سفيم، ثلاثة سلاطين، المرحلة الكلاسيكية العثمانية: الفاتح، الجبار، القانوني أنقرة 1991، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 142-143.



عودة ياووز من حملة تشالدران حسب "هنارنامه" 1514.

يروى المؤرخ المصري ابن إياس أنه اصطحب معه مجموعة مسرح خيال ظل عند عودته من القاهرة من أجل أن تسلية ابنه سليمان واستمتاعه بأوقاته. وبهذا يكون السلطان سليم الجبار هو من أدخل مسرح خيال الظل إلى الثقافة التركية⁽¹⁾.

كانت لدى الجبار ميول موسيقية وإن لم تكن بمستوى شقيقه الأمير قورقوت، حتى إنه جلب معه بعض الموسيقيين الأذربيجانيين من تبريز. وسرى أيضاً أن مراد الرابع قد اصطحب معه بعض أساطين الموسيقى من تبريز أيضاً. كان التاريخ مجال اهتمام الجبار الخاص. فقد كان يأخذ معه كتاب تاريخ الوصاف الذي يروي حروب المغول في الشرق إلى الحملات. وحزن كثيراً عندما سلب البدو هذا الكتاب في طريق حملته إلى مصر. وبعد فتح مصر، وجد خطأً

(1) الناقل: فيليب ك. هيتلي، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي، المجلد الرابع، ترجمة صالح طوغ، إسطنبول 1981، منشورات البوسفور، ص 1966.

مشهوراً بسرعة كتابته، وطلب منه أن يدون تاريخ الوصّاف، وقام باحتجازه في دار حتى ينهي عمله⁽¹⁾. كما أصدر الجبار أمراً بنقل مكتبة شقيقه قورقوت من مانيسا إلى قصر طوب قاب، وفي أمره هذا دليل لا يرقى إليه الشك على حبه للكتاب. كان يحب أن يحضر الشعراء والعلماء مجلسه. وقد حضر تلك المجالس علي أفندي الزنبيلي، وكمال باشا زادة، وإدريس البتلسي، وأستاذه حليمي أفندي، وجعفر چلبلي تاج زادة من رجال العلم والفكر، وأهي ورواني من الشعراء⁽²⁾. كان الجبار يكره البذخ واللهو، ويحب البساطة ومجالسة العلماء والفنانين ومناقشتهم، ولم يكن يُعنى كثيراً بلباسه وزينته، ويتعمد ألا يجدد ألبسته عندما تبلى⁽³⁾. وقد وصفه معاصره باولا جيوفيو لإمبراطور هابسبورغ شارلكان قائلاً: "إنه معتدل في الطعام واللهو"⁽⁴⁾.

تعلم صناعة الأقواس الجيدة، وتمرس بالرماية وهو صغير. ومن المعروف أنه صياد ماهر جداً. خرج في رحلات صيد امتدت شهوراً، وأورث هذه الهواية لابنه سليمان. ومن المعروف عنه مهارته باستخدام السيف من خلال قطعه تمساحاً إلى قطعتين بضربة واحدة على ضفة النيل. (انظروا إلى المنمنمة المنشورة في هنارنامه/ سيرة المهارات)⁽⁵⁾.

كان الجبار يهوى جمع المجموعات. وقد حفظ الأمانات المقدسة والأشياء القيّمة التي جلبها من سوريا ومصر في القصر العثماني باعتبارها أغلى ما في القصر. عدا هذا، إن قسماً كبيراً من مجموعة القطع الخزفية التي في قصر طوب قاب جلبها من خزينة المماليك في القاهرة، وأمر بجمعها من أسواقها⁽⁶⁾.

(1) الأستاذ سعد الدين أفندي تاج التواريخ إبراهيم حقي قونياي، "الأعمال التي أغنى بها السلطان سليم المكتبة"، عالم التاريخ، العدد 5، 15 حزيران 1950، ص 204-206.

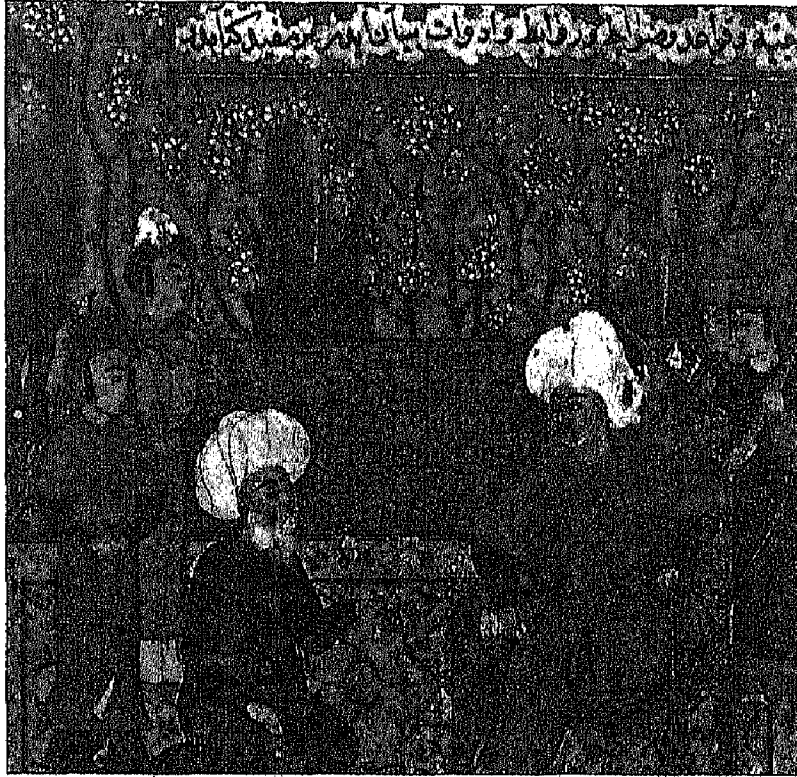
(2) امجان، السلطان سليم الجبار، ص 362.

(3) للاطلاع على طرفة حول هذا الأمر انظروا إلى: مدحت سرت أوغلو، ألبسة الحكام العثمانيين مجلة التاريخ المصور، العدد 34، تشرين الأول 1952، ص 1778.

(4) شناسي أطن ضاغ، سليم، السلطان الجبار الموسوعة الشهرية، رقم 31، تشرين الأول 1946، ص 945.

(5) "قطع الجبار للتمساح..." عالم التاريخ، العدد 3، 15 أيار 1950، ص 103-104.

(6) زيا إركس، مجموعة الخزف في متحف قصر طوب قاب وقيمتها عالم التاريخ، العدد 25، 15 أيلول 1951، ص 1045.



كان ياووز يهتم بشعراء عصره عن قرب. هاكم هذا المثال: يستمع للشاعر حلبي تشلبي منفعلًا وواضعًا ساقه تحته (من مشاعر الشعراء).

حين أنقذ السلطان سليم الجبار المدينتين المقدستين مكة والمدينة من تسلط غير المسلمين بضمهما إلى الدولة العثمانية رفض اللقب الذي أريد أن يُطلق عليه: "حاكم الحرمين الشريفين"، وأمر بتغيير كلمة "حاكم" إلى "خادم" وصار لقبه: "خادم الحرمين الشريفين"، ويروى أنه بكى في ذلك الموقف. في عهده، انتقلت عملية تطريز كسوة الكعبة من المماليك إلى العثمانيين لأول مرة، حيث أوقف عدة قرى إلى جوار القاهرة من أجل صناعة تلك الكسوة. وبقي تقليد صناعة كسوة الكعبة بيد العثمانيين منذ ذلك التاريخ وحتى الحرب العالمية الأولى حين خرجت الأرض المقدسة من أيديهم. النقطة الغربية الأخرى هي أمره بصناعة شمع خاص وإرساله إلى الحرم الشريف، وهو شمع أبيض أضيف له الكافور ويسمى "شمع كافوري"، ويستخرج من دهن الحوت سبارمتشتي. تذكر بعض المصادر أن الجبار كان مولوبياً. وقد زار قبر مولانا في قونية في طريق حملته إلى سورية.

أمر السلطان سليم الجبار عام 1514 بإنشاء مأوى لمرضى الجدام قرب مقبرة قرجا أحمد. وعرف ذلك المكان باسم تكية المساكين، وقدّم خدمات لمرضى الجدام حتى عام 1938؛ أي تاريخ هدمه. شبه شيخ الإسلام كمال باشا زيادة فترة حكم السلطان سليم الجبار التي لم تدم سوى ثماني سنوات بشمس عصر النهار البراقة قصيرة العمر من خلال هذا البيت:

عده شمسُ عصرٍ برّاقة طویل الظل وقصیر الزمان

طالما بقي حد السيف بتاراً...

تفيد الروايات أن السلطان "سليم" الجبار لم يكن يعتني بهندامه، ولا يُجدّد ثيابه عندما تبلى. لهذا السبب كان رجال الدولة لا يرتدون ثياباً جديدة ومزركشة عندما يمثلون في حضرته احتراماً له وخجلاً منه في الوقت عينه.

عندما كانت ثيابه تبلى لم يكن أحد يجرؤ على قول ذلك له. ذات يوم، أصبح لباس سلطان السلاطين وكذلك ألبسة الوزراء رثة تماماً. في هذه الأثناء، وصل خبرٌ بأن سفيراً كافراً سيأتي، فاستغل الصدر الأعظم هذه الفرصة، ومثل أمام السلطان، وقال بخوف شديد:

"سيدنا، زمرة الكفار هذه قاصرة العقل، لهذا فهي تنظر بسطحية، وتعطي أهمية زائدة للمظاهر. من اللائق يا سلطان سلاطيننا..."

فهم الجبار مقصده، فقاطعه قائلاً:

"ها... نعم! لنفعل هذا. وأنتم أيضاً تدبروا ألبسة جيدة مزركشة!"

فرح الوزراء، وفصلوا ألبسة جديدة مزركشة. وأمر سلطان السلاطين بوضع سيف مجرد عند قائمة العرش.

جُهِز كل شيء، ووقف الوزراء وعلى رأسهم الصدر الأعظم بألبستهم الفخمة حول العرش منتظرين سلطان السلاطين. فجأة، أتى الجبار، ولكن بألبسته القديمة!

انتفخت شفاه الوزراء من الخوف، وتحولت ذقونهم ذات اللحي البيضاء إلى حقول أقحوان. في الوقت نفسه، مثلّ السفير انتفخت شفاه الوزراء من الخوف، وتحولت ذقونهم ذات اللحي البيضاء إلى حقول أقحوان. في الوقت نفسه، مثلّ السفير أيضاً في حضرة السلطان. وقفّ السفير منحنياً أمام الجبار الذي كان العالم بأسره يرتجف عند المشول بين

يديه، ويكاد أن ينطبق طبقتين من شدة الخوف. بعد الحديث والمراسم المعتادة، غادر السفير الحضرة. حينئذ قال الجبار للوزراء:
 "اذهبوا الآن، واسألوا السفير: كيف وجدت لباس سلطان سلاطيننا؟".

هرع الوزراء، وسألوا السفير هذا السؤال. وكان الجواب الذي تلقوه هو:

"أنا لم أر الحاكم العظيم... خطف نظري السيوف بمجرد عند قائمة العرش، ولم أر غيره!".

عندما نُقل هذا الجواب إلى سلطان السلاطين، أشار نحو السيوف الذي كان لا يزال عند قائمة العرش، وقال:

"طالما بقي حد السيوف بتاراً لا ترى عين الكافر لباسنا، ولا تتنبه إليه. الله لا يرينا اليوم الذي يجعل فيه سيفنا غير بتار، ونشغل باللباس والمظاهر. لأن الكافر حينئذ سيرفع عينه عن الأرض، ويضعها على سلطان سلاطين آل عثمان!"⁽¹⁾.

(1) مدحت سرت أوغلو، ألبسة الحكام العثمانيين، ص 1778.

الشاعر والصائغ: السلطان سليمان القانوني (1520-1566)

حتى أنت عليك ألا تعلق قلبك بشيءٍ فإن.

السلطان سليمان القانوني

السلطان سليمان القانوني أحد عظماء العثمانيين المظلومين. لعل مؤرخينا يحتاجون إلى عشرات السنين من أجل إجلاء وجهه الرائع؛ لأن للقانوني شخصية مؤثرة من أي جانب تتناولونه. فتوحاته فقط تكفي لسلب ألباب أمة. من جهة أخرى، إنه يحتفظ بلقب أكثر من كتب شعراً على بحر الغزل بين الشعراء الكلاسيكيين، وبفارق كبير. هناك مئات الآثار المعمارية في جغرافيتنا تبدأ من السلمانية وتصل إلى قنوات ماغلوفا لجر المياه. كان الأكثر أناقة في عصره، أي يمكن اعتباره أحد مؤسسي الأزياء العثمانية. شغفه بالمجوهرات وصل إلى الذروة. وفي الوقت نفسه، يُعتبر المدرب الفني الذي وقف خلف تشكيل جيل المصارعة الحديدي العالمي. سنبداً الآن باستعراض شخصيته.

تصوّر المصادر السلطان سليمان القانوني أنه قصير القامة، وأشقر البشرة، وخرنوبي اللحية، وأزرق العينين، وعريض المنكبين، وقويّ البنية، وذو لحية قصيرة، وشاربه طويل وكث يرتفع فوق أنفه. ولكن لونه شاحب قليلاً⁽¹⁾. ويقال

(1) هناك روايات مختلفة جداً حول شكله. مثلاً: طويل القامة، أسود الحاجبين، أشهل العينين، أسمر البشرة، نسري الأنف، أسنانه متفرقة، ووجهه طويل. انظر إلى: قوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 167؛ مستدير الوجه، أشهل العينين، حاجباه متباعدان، صقري الأنف، طويل القامة والرقبة قليلاً، وخفيف اللحية. انظروا إلى: أوزون تشارشلي، تاريخ العثمانيين، المجلد الثاني، ص 419؛ من أجل الوصف نفسه أيضاً انظروا إلى: يوجال وسفيم، مصدر سبق ذكره، ص 213؛ "بيضاوي الوجه، أسود الرموش، أشهل العينين، صقري الأنف، شهم، إذا وعد وفي، عريض الظهر، أسدي الهيبة، طويل القامة، أسنانه متباعدة كأنها درر، يسير بهيبة ووقار ببطء... وكان سلطان سلاطين صاحب وقار". تاريخ صولاق زادة، المجلد 2، ص 111.



منمنمة من هنارنامه يظهر فيها القانوني وهو بصطاد بجوار قصر فيلبة.

إنه كان يدهن وجهه بمسحوق في المراسم لكي يبدو بصحة جيدة. وهو مصاب بداء لا براء منه في ساقه، لهذا تَوَلَّمه باستمرار.

نال نصيباً جيداً من التعليم بسبب تمضيته فترة مهمة من طفولته في قصر جده بيازيد الثاني. تلقى دروساً من علماء قديرين كثيرين، ونشأ بشكل خاص في ظل خير الدين أفندي القسطنطيني.

كان محباً للأناقة والفخامة والزركشة باللباس على النقيض من والده وجدّه، وكان يحب ارتداء الثوب الطويل عديم الكمين، ويستعمل أدوات وزينة تُظهر الغنى الفاحش. كان يرتدي سراويل مختلفة الأشكال، لذلك كان الجبار يناديه: "المُسْرُول". ذات مرة رآه بألبسة فاخرة فسخر منه قائلاً: "لم تترك شيئاً لأملك تلبسه".

كان السلطان سليمان القانوني هاوياً للصياغة كوالده الجبار، ومعلماً ماهراً في هذه المهنة إلى حدّ أنه كان يعرف نماذج فن الصياغة الإيطالية، ويطبّقها⁽¹⁾.

(1) كان اسم معلمه قسطنطين، وهو رومي. كما كان والد أوليا جلبي أيضاً كبير الصاغة في القصر. بحسب القونيايي، إن الصاغة كانوا يقيمون مخيماً في كاغتهانة كل عشرين يوماً، ويلهون، وكان هذا بأمر من القانوني. انظروا إلى: إبراهيم حقي قونيايي، السلطان سليمان القانوني، الوطن التركي، العدد 8، آب 1966، ص 19.

غير هذا، كان شغوفاً بالأحجار الكريمة مثل الفاتح. وبحسب الرحالة البندقي ماركو سانودو، لم يحب أحد من السلاطين الذين سبقوه المجوهرات مثله. ومن المعروف أن صائغاً بندقياً صنع للقانوني تاجاً ذهبياً مرصعاً بأربع ياقوتات، وأربع ألماسات، والكثير من اللؤلؤ، وزمردة ضخمة، وحجر فيروز. ومن المناسب اعتبار ذلك التاج أداة دعاية وإظهار مكانة لعدم وجود عادة وضع تاج لدى العثمانيين. وقد شوهد أثناء استقباله أحد السفراء واضعاً التاج على كرسي مجاور، وليس على رأسه⁽¹⁾.

من المتفق عليه بين الخبراء، أن عظمة شاعريته كانت مساوية لعظمة قيادته العسكرية وإدارته. لقد استخدم القانوني اسم محيي الفني، ولضرورة الوزن استخدم أحياناً أسماء محب، والسلطان سليمان، ومفتوني، وعاجزي. ويتضمن ديوانه 2779 قصيدة على بحر الغزل، بينما لم يكتب أشهر الشعراء الكلاسيكيين "زاتي" سوى 1825 قصيدة فقط. وهكذا، يعتبر القانوني صاحب الرقم القياسي بكتابة قصائد على هذا البحر⁽²⁾. كما أن أكثر شعراء العالم التركي عطاء على بحر الغزل علي شير نوائي بقي عند الرقم 2616 قصيدة، وهكذا فهو يتخلف عن رقم القانوني بمئة وست وستين قصيدة⁽³⁾.

كتب بالفارسية قصائد لو جمعت لعادلت ديواناً منشوراً⁽⁴⁾، وهذه الحقيقة تزعج بعض الباحثين⁽⁵⁾. لقد طبعت السلطانة عادلة بنت محمود الثاني قسماً مؤلفاً من 875 قصيدة من ديوان محيي سنة 1899 تقديراً لجدها⁽⁶⁾. برأي مؤرخنا الأديب المرحوم أميل چلبی أوغلو، إن القانوني أحد الشعراء الذين يجب أن

(1) أندريه كلوت، سليمان الراقع، ترجمة: طورهان إلغاز، إسطنبول 1994، منشورات ملييت، ص 109.
 (2) انظروا إلى: ولدان سردار أوغلو، ديوان زاتي في ضوء الحياة الاجتماعية إسطنبول 2006، منشورات "ISAM" ص 49؛ مصطفى إيسان، "الجانب الشعري لدى الأسرة العثمانية المالكة" ص 86، علي فؤاد بيلكان، مؤرخ الفن لدى الأسرى العثمانية المالكة، ص 337.
 (3) الدكتور رضا نوري، الرسائل السياسية، إعداد أحمد نزيه غاليكين، إسطنبول 2005، منشورات شهير، ص 224.

(4) جوشكون آق، "ديوان محيي بالفارسية"، بورصة 1995.
 (5) مثلاً: إسماعيل هامي ضانشمند، من القانوني؟ الوطن التركي، المجلد 5، العدد 8، آب 1966، ص 12.
 (6) سلطان السلاطين العشاق والشعراء (عدد خاص من عالم التاريخ)، إسطنبول 1950، ص 14.

يحتلوا مكانة في الشعر العثماني؛ حتى لو لم يكن سلطان سلاطين. وهناك قصيدة في ديوانه المخطوط في متحف طوب قاب لم تدخل ديوانه⁽¹⁾.

قدّر القانوني العلماء والشعراء كثيراً، ودعاهم إلى قصره، واستمتع بمسامرتهم، واصطحبهم معه في ترحاله، وعمل على إسعادهم. ونعرف أن "فضولي" حاز مديحه عندما دخل بغداد⁽²⁾. ولكن سبب عدم استمرار الود لهذا الشاعر الكبير هو تمييزه الشاه إسماعيل في ثنائياته بنج بادة، ومدحه إياه بقوله: "حيوي يضح بالحياة كالخمر"، وتشبيهه جده بيازيد الثاني بالأفيون⁽³⁾. لقد أدرك القانوني تمكن الشاعر باقي من الشعر، فأخذ بيده، ورعى تطوره. وعندما وافت المنية القانوني ردّ باقي الجميل بمرثية خلدته⁽⁴⁾.

ونورد هذه المقطوعة من بحر الغزل التي انتشرت بين الناس كمثال:

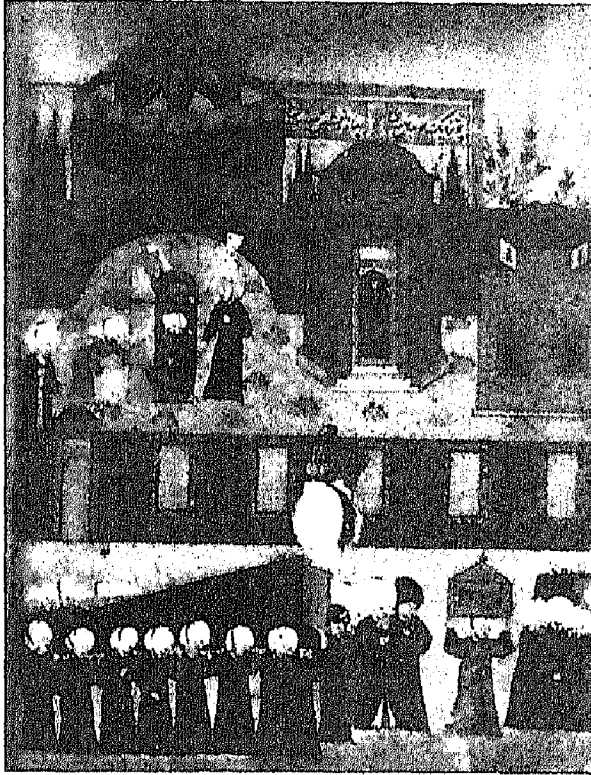
لا مكانة لدى الشعب كمكانة الدولة
ولا سعادة في الدنيا كسعادة الصحة
ما السلطة سوى صراع دنيوي
ولا سعادة في الدنيا كسعادة الوحدة
دعك من مجالس اللهو فنهايتها سيئة
إن أردت صديقاً أبدياً فلا أفضل من العبادة
إذا لم تعتبر سني عمرك المتسربة كرمل ساعة
فاعتبر من الساعة التي تدور في الزجاجاة
غادر يا محبّ صخب الحياة إن أردت طمأنينة
لأنه لا طمأنينة كالاكتاف وحيداً

(1) نيغار أنافارطا، غزلية سليمان القانوني المجهولة، مجلة الحياة تاريخ، العدد 4، أيار 1968، ص 11-12.

(2) سميح نافذ طانصو، سليمان القانوني الموسوعة الشهرية، رقم 17، أيلول 1945، ص 544.

(3) مجغان جومبور، فضولي: حياته وأعماله عالم التاريخ والجغرافية، العدد: 3، 1 حزيران 1959، ص 168، فوجا تورك، مصدر سبق ذكره، ص 169.

(4) أوزون تشارشلي، تاريخ العثمانيين، المجلد الثاني، ص 420.



جسد القانوني محمولاً إلى المقبرة من أجل
الدفن. الصندوق المحمول على الرأس أمام
التابوت يثير الفضول. هل فيه فتاوى "أبو
السعود" أفندي؟

يقدم لطيفي التقييم التالي حول شاعريته:

الكلمات البليغة التي تنتظم في خلجات قلبه أثناء أعمال السلطنة تشبه عقداً
من اللؤلؤ، ووجدت مكانة وشهرة بين المثقفين وفي لغات العالم كلها. بأداء
مرهف وكلمات ملونة نظم قصائد على بحر الغزل الجميل بالفارسية والتركية⁽¹⁾.
يُذكر في بعض المصادر أن القانوني كان فناناً بالخط، ويكتب خط التعليق
بشكل جميل⁽²⁾. ويلاحظ أنه كان يستخدم هذا الخط في خطاباته⁽³⁾.

ليست لدينا معلومات عن مدى اهتمام القانوني بالموسيقى، ولكنه عندما
كان أميراً مقيماً في مانيسا سمع عزفَ عبد لذي امرأة على الكمان، فاهتم به،

(1) مذكرات لطيفي، ص 81.

(2) عيسى قابا ألب، تحليل ديوان السلطان أحمد إسطنبول، 1999، منشورات كتاب إف/بيت الكتاب،
ص 61، بكطاش أوغلو، مصدر سبق ذكره، ص 291.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث/ أنقرة 1998، منشورات مجمع
التاريخ التركي، ص 560، هامش 1. للاطلاع على مثال انظر إلى: مصدر سبق ذكره، صورة 7، عبارة
"لتعطي للجميع" هي بخط القانوني شخصياً.

وأعجب بعزفه، واشتراه، وأدخله في خدمته. هذا العبد هو الذي ترقى لاحقاً إلى أن وقَّع باسم "السلطان قائد الجيش" إبراهيم باشا المقبول (المقتول)⁽¹⁾. كما عُلِّم، وصلنا أن فرانسييس الأول ملك فرنسا أرسل أوركسترا قصرٍ صغيرة تعبيراً عن امتنانه لمساعدته، وقد استمع القانوني لعزفها، ولم يعجب بالمقطوعات التي عزفتها. ولكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه أمر أن يُعاد توزيع إحدى المقطوعات، ندرك أن لديه أذناً موسيقية جيدة⁽²⁾.

رعى القانوني أرباب العلم والفن بشكل دائم، وأمر علاء الدين چلبي بترجمة كتاب كليلة ودمنة أحد أهم آثار الأدب الهندي، وقرأ الترجمة المقدمة له باسم سيرة سلطانية بليلة واحدة، وكافأ المترجم بتعيينه قاضياً على بورصة؛ المنصب الذي يحتاج في الأحوال العادية إلى سبع سنوات خدمة لبلوغه⁽³⁾. كان والده السلطان سليم الجبار يعرف التتارية إضافة للعربية والفارسية، أما القانوني فقد تعلم لغة التشاغطاي إضافة إلى العربية والفارسية⁽⁴⁾.

أمّر شاعراً يدعى ضعيفي بترجمة كتاب إلباسه لباساً رومياً من الفارسية إلى التركية، وهو كتاب سياسي نموذجي، ويجب اعتبار عمله هذا محاولة على طريق تشكيل فلسفة الدولة من خلال الرسائل وأخبار الشعراء⁽⁵⁾. بالإضافة إلى ما تقدم فقد تَرَجَّم مراد بيك أحد مترجمي القصر كتاب الفيلسوف والخطيب الرومي شيشرون وقدمه للقانوني. اسم الكتاب باللاتينية "De Senectute" وترجمه بعنوان: كتاب مديح الشيخوخة⁽⁶⁾.

كان هاوياً للسيراميك أيضاً. لهذا السبب دخلت القطع فائقة الجمال المسماة الزرقاء والبيضاء المستجلبه من الصين هدية سفير الهند إلى القصر

(1) سرت أوغلو، ما خلف ستارة عصر القانوني، ص 20.

(2) جينوتشان طانري قوروران، الموسيقى العثمانية، ص 506-507.

(3) م. طيب غوكبلغن، سليمان الأول الموسوعة الإسلامية، إسطنبول 1967، المجلد التاسع، ص 152.

(4) أميل تشلبي أوغلو، الأدب التركي في عصر السلطان سليمان القانوني، إسطنبول 1994، منشورات وزارة التربية القومية، ص 36.

(5) ضعيفي، حديقة ورد الملوك إعداد: عبد الكريم قوتشين، أنقرة 2005، منشورات آق تشاغ، ص 72-73.

(6) المحرر: فريدريك هيتزل، "Enfants de langue et Dragomans/ مترجمو القصر والمترجمون" إسطنبول 1995، منشورات بنك البناء والقروض، ص 17.

في عهده، وما زالت إلى اليوم تشكل نواة مجموعة الخزف القيّمة في قصر طوب قاب.

أشرنا في ما سبق أن لكل سلطان سلاطين مهنة. وتشير المصادر إلى أن القانوني كان إسكافياً.

من المعروف أن القانوني كان قائداً عسكرياً كبيراً بل عظيماً، ولا ضرورة للتنبؤ بأنه هادٍ للألعاب العسكرية ومتع الصيد. ولا ضرورة أيضاً للقول إنه ماهر بالفروسية وألعاب السيف. ومن المعروف أنه عندما كان في الحادية والثلاثين من عمره، وأثناء معركة موهاج التي خاضها عام 1526، رأى ثلاثة فرسان مجريين يهجمون باتجاهه، فاستل سيفه، وقضى على الثلاثة معاً بضربة واحدة⁽¹⁾. كما يمكن أن نستنتج حبه للرياضة من خلال أمره بإنشاء ساحة للمصارعة غربي جامع السلمانية تقع بينه وبين القصر القديم في البيازيد⁽²⁾. تقع تلك الساحة اليوم ضمن بناء جامعة إسطنبول، وشيد عليها بعض الأبنية.

وتكاد المصادر تجمع على أن السلطان سليمان عانى من الإصابة بمرض النقرس. والمعروف أيضاً أن موته كان نتيجة مضاعفات هذا المرض⁽³⁾. وقد عالج كبير الأطباء محمد بدر الدين قيصوني النقرس في رجل السلطان سليمان⁽⁴⁾. وتفيد المصادر أيضاً أنه تمنى الموت شهيداً في شيخوخته. ويقال إن دعاءه هذا قُبِلَ في سيكتوار⁽⁵⁾. ألا يمكن أن يكون خروجه وهو في الحادية والسبعين من عمره في تلك الحملة وهو مريض من أجل أن يموت أثناء الجهاد؟

(1) حلمي آيدن، سيوف سلاطين العثمانيين في قصر طوب قاب، المهن اليدوية، العدد 4، 2007، ص 36. أما مدحت سرت أوغلو فيكتب: "إنه قضى على فارس معاد، ولكن الآخرين قضى عليهما الإنكشاريون الذين هرعوا لنجدته". انظر إلى: معركة موهاج، مجلة التاريخ المصورة، العدد 49، كانون الثاني 1954، ص 2858-2859.

(2) إبراهيم حقي قونبالي، الأوقاف وتكية المصارعين، التاريخ يتكلم، العدد 34، تشرين الثاني 1966، ص 2853.

(3) انظروا إلى: متين قونط، السلطان سليمان والنقرس، إعداد أوزلم قومرولر، سليم الرائع، إسطنبول 2007، منشورات دار كتاب، ص 93-99.

(4) حقي أوزال روستشقلو، أرشيف الطب التركي، رقم 15، 1940، الناقل سليمان أنور، الذكرى الأربعون للقهوة التركية عالم التاريخ، العدد 10، الأول من أيلول 1950، ص 420.

(5) ضانشمند، من القانوني؟ ص 12.

ولا يمكن مقارنة إنجازاته التي أمر بها في مكة والمدينة إلا بما أنجزه والده الجبار، وأحفاده أحمد الأول ومراد الرابع وعبد الحميد الثاني. فقد أرسل منبرين يُعتبران قطعيتين فنييتين من الرخام إلى الحرم الشريف وضريح سيدنا محمد ﷺ، وأضاف مئذنتين جديدتين للحرم الشريف، وأعاد بناء بيت سيدتنا آمنة حيث ولد سيدنا الرسول، وجرّ عين زبيدة إلى مكة، ودفع من أجل هذا العمل مائة ألف ذهبية من ماله الخاص. بالإضافة إلى كل هذا، أنشأ مدرسة دينية في مكة، وأنشأت زوجته حُرّم مكاناً لإطعام الفقراء⁽¹⁾. وأخلص ابنه سليم بتنفيذ وصيته التي طلب فيها أن يُجرّ الماء إلى جِدّة من أجل ألا يعاني الحجاج من العطش.

ومن المعروف أن القانوني أولى أهمية خاصة للمتصوفين والشيوخ، وانتسب إلى المولوية، واستمد عزوة من النقشبندية وذكرأ من الخلوتية. ومن الواضح أنه استمد غناه الداخلي المنعكس في شعره من بستان ورد معاني التصوف⁽²⁾.

(1) محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين، ص 45-48.

(2) رشاد أونغوران، السلاطين العثمانيون والتصوف، المجلد 4، أنقرة 1999، منشورات تركيا الجديدة،

لُجِرَ الماء إلى جدّة

قبيل انطلاق القانوني في حملة سيكتوار ترك لابنه ولي العهد سليم رسالة ذات معنى. كأنه استشعر موته - وقد كان مريضاً جداً عند خروجه - فتناول القلم، وكتب الوصية التالية لابنه:

يا سليم خان نور عيني الأحب إليّ من روعي. خذ ربطة الذراع هذه وصندوق الجواهر فقد أوقفته، وأوصيك به على روح أشرف من في الدنيا والآخرة: بعها، وجر الماء بئمنها إلى جدّة، كن ابناً مطيعاً، ونفذ هذه الوصية.

يشهد عليّ أغوات القصر وخدمه كلهم، أنت تعرف خطي، لهذا لا فخر لي في الدنيا إلا أن أرى الظماً قد أطفئ. الدنيا لا تدوم لأحد. أمل أن تبعتها بقيمتها. ليبارك لنا الله تعالى بهذه الحملة، ويُسرها. الصلاة والسلام على الحبيب⁽¹⁾.

(1) أرشيف متحف قصر طوب قاب، رقم "E.5888". نيجار أنفارطا، حملة السلطان سليمان القانوني الأخيرة ووصيته، الوطن التركي، المجلد 5، العدد 8، آب 1966، ص 33.

القانوني يطلب الدعاء من سيكتوار

كانت للقانوني رؤية عميقة للدنيا إلى درجة أنه وَجَّه قبيل وفاته رسالة من سيكتوار إلى شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي" العالم الذي يعتبره أخاه في الآخرة ويحترمه، يطلب منه فيها ألا ينسأه بدعائه. نص الرسالة هو:

يا شريكي عند الهم، ومؤنسي عند الغم، وأخي في الآخرة، ورفيقي في طريق الحق حضرة الشيخ "أبو السعود أفندي"، بعد السلام والدعاء بالخير، كيف حالك؟ وكيف مزاجك؟ هل أنت بصحة جيدة؟ ليمنحك حضرة الحق كمال القوة والسلامة مما عنده. أمنيته ورجاؤنا ألا نكون خارج قلبك الشريف في الأوقات المباركة. على أمل أن يُهزم الكفار، ويكسروا وينهكوا، وينصر جنود الإسلام عموماً بنيل رضاء الله تعالى. الدعاء ثم الدعاء.

عبد الهدي

كاره الرياء سليمان خان⁽¹⁾

(1) الناقل: آ. سهيل أنوير، الرسالة التي أرسلها السلطان سليمان إلى "أبو السعود أفندي" أثناء مرضه في سكتوار قبل أربعمئة سنة، الوطن التركي، المجلد الخامس، العدد 8، آب 1966، ص 26.

عبارة "الفلاح سيد الأمة" في الحقيقة للقانوني

يُعتقد على نطاق واسع أن عبارة الفلاح سيد الأمة هي لأتاتورك، ولكنها في الحقيقة للسلطان سليمان القانوني. فبينما كان مجتمعاً مع حريمه ذات يوم سألهن: "من هو سيد العالم؟". وعندما أجبته دون تردد: "سيدنا سلطان السلاطين". قال القانوني: "لا، سيد العالم هو الرعية؛ أي الفلاح الذي ترك الراحة والطمأنينة لكي يحرق ويوزع ويطعمنا مما يجنيه".

* * *

القانوني وسفينة نوح

لدينا أدلة غريبة على اهتمام السلطان سليمان القانوني ببقايا سفينة نوح. أورد هذا أدناه من أجل البحث المفصل فيه:
... وانطلق السلطان سليمان من هذا الشاطئ، ومر على المراسي في الطريق إلى أن وصل إلى مقابل رودوس في سنجق منتشة، وعبر ثكنات منطقتي روملي والأناضول، وقد دُهل. كانت لدى السلطان قطعة خشب من سفينة، كانت تلك الخشبة من سفينة نوح أساساً⁽¹⁾.

(1) قايهان أتيق، لطفلي باشا وتواريخ آل عثمان، أنقرة 2001، منشورات وزارة الثقافة، ص 248. غير هذا، هناك ما نقله إبراهيم حقي قونيلي من تاريخ لطفلي مع بعض الأخطاء: "هل نزلت سفينة نوح على جبل جودي أم على جبل آغري؟" التاريخ يتكلم، العدد 16، أيار 1965، ص 1311.

السلطان الذي أهله السليمية: سليم الثاني (1566-1574)

طلب من وزيره تنظيم العالم فرغب بقصر سلطاني.

يحي كمال

اعتاد مؤرخونا على اعتبار موت القانوني بداية انحطاط الإمبراطورية العثمانية، وهذا على الأصح خطأهم. لم يتجدد النجاح العظيم وطويل المدى بعد القانوني، ولكن بنية الدولة العثمانية العسكرية والسياسية استمرت قرناً على الأقل بعد موته. مع هذا، إن فتح قبرص عام 1571 نجاح هام شكّل نقطة انعطاف مهمة على صعيد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط، ويعود هذا الإنجاز إلى عهد ابن القانوني سليم الثاني. يُعد فتح جزيرة كريت الصعب عام 1669 نجاحاً لا يمكن تجاهله بعد وفاة القانوني بقرن، وقد حدث في عهد محمد الرابع.

وُلد سليم الثاني فرحاً بالحياة خلال عرس عمته السلطانة خديجة على الصدر الأعظم إبراهيم باشا المقبول. تُصوّره المصادر متوسط القامة أو طويلاً نوعاً ما، وممتلئ الجسم، وطويل الساقين إلى حدّ ما، وحنطي البشرة مائلاً إلى الشقار، وعريض الجبهة، وأزرق العينين، وخرنوبي اللحية. ويصوره صولاق زادة على أنه مربع القامة، وأفطس الأنف، وخرنوبي اللحية، وأشقر البشرة، وعريض الجبهة، وأشهل العينين المائلتين إلى الزرقة⁽¹⁾. يُلقب بالأصفر. يشبه وجهه وجه أمه حُرّم. كان النصف السفلي لأجسام السلاطين العثمانيين عموماً قصيراً بالنسبة إلى النصف العلوي، أما سليم خان الثاني فعلى العكس من هذا،

(1) تاريخ صولاق زادة المجلد الثاني، إعداد وحيد چابوق، أنقرة 1989، منشورات وزارة الثقافة، ص 321.

أي نصفه السفلي طويل بالنسبة إلى نصفه العلوي، وكان مهيب الشكل⁽¹⁾. إن أول سلطان جلس على العرش العثماني هو السلطان سليم الجبار، واستمر عهده ثماني سنوات (1512-1520). والغريب أن عهد سليم الثاني دام ثماني سنوات أيضاً. أما سليم الثالث الذي سيجلس على العرش في أواخر القرن الثامن عشر، فقد أضاف إلى فترة حكم السليمن اللذين سبقاه عشر سنين، ليبلغ عهده ثماني عشرة سنة. المصادفة الغريبة الأخرى أن السليمن الأولين جلسا على العرش في العمر نفسه، أي حين كانا في الثانية والأربعين من العمر. سليم الأصفر رجل الميول المدهشة التي لم تلتقطها العيون. كان يحفر أهلة على العكاكيز، ويشعر بالسعادة من إهدائها بواسطة رجاله للحجاج ليتكثروا عليها، ولعله بهذا يجد سلواناً لعدم ذهابه إلى الحج؛ حين يفكر في أن قطعاً من صنعه مسّت ذلك التراب المقدس.

وَصَلْنَا أَنْ "سليم" الثاني اهتم كثيراً بالصياغة مهنة جده ووالده. كما كان يصنع أهلة ذهبية من أجل تتبع الأسطر عند القراءة، ويرصع مقابضها بالأحجار الكريمة بتصميماته الخاصة، وبهذا استمر بمهنة جده.

تصوره إحدى المنمنمات ماهراً بالصيد والرماية. كثيراً ما يذهب إلى أدرنة من أجل الصيد، ولهذا كان يحب هذه المدينة. ويتكليفه المعمارى سنان ببناء جامع السليمية في أدرنة عرف كيف يختم هذه المدينة بخاتم العثمانيين الذي لا يُمحى.

تقول الروايات إن أحداً لم يكن يشد القوس بقوته⁽²⁾. وفي متحف طوب قابٍ قوس بدأ بنصبه، ولم ينهه⁽³⁾. وكان قوياً جداً على عكس ما ترسمه الكتب بشخصية سلطان السلاطين المسكين.

قرب سليم الثاني الشاعر باقي الذي كان يقدره والده كثيراً منه، وكان سلطان سلاطين محباً للموسيقى ويتذوق الشعر، ويكتبه أحياناً. ولكن لم يكن

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني المجلد الثالث، ص 40.

(2) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 40.

(3) تولاي إشبيل، القوس والنبل والرماية رياضة تركية قومية مجلة التاريخ والأدب، العدد 3، آذار 1981،



منمنمة تصور "سليم" الثاني
وهو يزور الكعبة. ترى، هل
تصوّر حقيقة أم توفاً؟

لديه ديوان مجموع. بقيت قصائده في بعض المجلات. اسمه الفني سليمان
(ولكنه يُذكر في بعض الأمكنة طالبي)⁽¹⁾ ويعتبر البيت التالي أحد أجمل كتاباته،
ويعادل ديواناً كاملاً:

نحن بلبل ملتهب التغريد في حديقة ورد الفراق

لو مر نسيم الصبا على حديقتنا لهدأ اللهب

وهناك بيت جميل جداً يعبر عن شخصيته بنجاح كبير:

يا قلب! نحن خلقنا لطفاء بالفطرة

يعلم الله أننا لا نعادي أحداً

(1) أطالر، مصدر سبق ذكره، ص 436.

ويُعرف عن سليم الثاني أنه ملحن قدير لحن عمليين على مقام "سوزي ديلارا"، ولحن وعمل على مقام "بسنديدة"، وأغنيات على مقامات ماهور، وشاهيناز، وسنبلة محير، وبوسلك، وخزام، وشوق طرب، وشوق أفزا⁽¹⁾. وقد ضم إلى مجلسه أكثر من عشرين عالماً وشاعراً ورساماً وموسيقياً منذ كان أميراً. وهكذا يظهر أماننا الاسم المهم الثاني في سلسلة السلاطين الملحنين التي بدأت مع بيازيد الثاني.

وهناك خاصيتان أخريان لسليم الثاني؛ الأولى أنه أول سلطان سلاطين ولد ومات في إسطنبول، والثانية أنه لم يخرج على رأس الجيش في حملة. تابع السلطان سليم الثاني إعمار الحرم الشريف الذي بدأه والده، وقام بإصلاح قنوات جر الماء في مكة التي كانت خربة، وأضاف قباباً رخامية للمسجد الحرام، وأنفق على هذا العمل 210 ذهبيات من الخزينة الخاصة. وقد جلب الأعمدة المستخدمة في صيانة الحرم الشريف خصيصاً من مصر. وهنا يسعنا الاستعانة بالعبارة التالية للمكي: "كل حجر في الحرمين الشريفين يشهد على فضيلة الخلفاء العثمانيين وقداستهم"⁽²⁾.

بناء جامع السليمية كان نقطة تحول في حياة سليم الثاني الذي اهتم بكل تفصيل من تفاصيل الجامع، وانتظر على أحرّ من الجمر افتتاحه، ولم يقصّر بأي نفقات لكي يكون بمنتهى الجمال. كان يزداد انفعاله مع اقتراب الافتتاح من جهة، ويعيش محاسبة ضمير حول ما إذا كان الأثر العظيم الذي سيظهر إلى الوجود يليق بشخصيته من جهة أخرى. وباختصار، إن جامع السليمية أثر بعمق على حياته⁽³⁾، ونفهم هذا من خلال استدعائه الشيخ سليمان أفندي الغديزلي إلى القصر. وقد تاب إلى الله، واستغفر في حضرته وهو يصبب الدموع.

دس بعض الكتاب السّم في كتاباتهم؛ حيث ذكروا أنه فتح قبرص من

(1) رشاد أكرم قوتشو، من عثمان غازي إلى أتاتورك: بانوراما تاريخية لستة قرون، ملحق خاص لجريدة الجمهورية (خمسينيات القرن العشرين).

(2) محمد الأمين المكي، خدمات السلاطين العثمانيين للحرمين، ص 52.

(3) أشكر البروفيسور سماوي إبيجا الذي لفت نظري إلى هذه النقطة. (لقاء خاص تم في 7 تشرين الأول

أجل عنبها الجيد، وأنه مات بانزلاق قدمه وسقوطه وهو مخمور في الحمام. هذه أمور معيبة. إنهم يسوقون منطقاً غريباً وكأنه لا يمكن جلب العنب من قبرص عن طريق التجارة. صحيح أن قدمه انزلت على رخام الحمام، ولكن هذا كل ما في الأمر، ولا علاقة له بالخمير. كتب أحمد وفيق باشا في عمله المعنون: تفنيد التاريخ العثماني: "أثناء تفقد سليم الأشقر الأجنحة والحمامات المجددة بعد الحريق، انزلت قدمه، وسقط على الرخام. وكانت هذه الحادثة سبب موته"⁽¹⁾. وقد كان حينئذ يصارع المرض منذ فترة، وأخبره رئيس الأطباء القديم مصطفى چلبى أنه يعيش آخر أيام حياته⁽²⁾. وفي ما تقدم نموذج عن قلب الحقائق الواضحة وضوح الشمس.

لقد كتب يحيى كمال لسليم الثاني قصيدة على بحر الغزل "غزل لسليم الثاني" ويقصد السليمية في البيت الذي نوره:
يا كمال، هناك بيت شعر كتبه وجامع بناه ليمطر الله عفوه برائحة المسك على قبره⁽³⁾

(1) أحمد وفيق باشا، تفنيد التاريخ العثماني، إسطنبول، 1288هـ (1871م).

(2) السيلانيكي I، ص 98، الناقل: زينب طارم إرطوغ، مراسم الجلوس على العرش والجنائزات في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر، أنقرة 1999، منشورات وزارة الثقافة، ص 132.

(3) يحيى كمال، مع رباح الشعر القديم الطبعة الثانية، إسطنبول 1974، منشورات معهد يحيى كمال، ص 94.

سلطان السلاطين الذي لم يستطع قول لا: مراد الثالث (1574-1595)

افتح عينيك واستيقظ من رقاد الغفلة
استيقظا يا عيني الرقودتين استيقظا،
صدقا أن عزرائيل يقصد الروح،
استيقظا يا عيني الرقودتين استيقظا

مرادي (مراد الثالث)

يذكر التاريخ العثماني أن "مراد" الثالث قتل إخوته فور جلوسه على العرش، وأسس حرماً كثير النساء، ولكن من المفيد أن نعلم أنه صاحب مكانة لا جدل حولها في ترسيخ الصيغة الكلاسيكية العثمانية للفن والثقافة. يمكننا القول إن أساس الثقافة الغنية قد وُضِعَ في عهده، وبرعايته، وهو الذي حدد خطوطها الرئيسية. أنا واثق أن معرفتنا جوانب شخصيته المختلفة ستقوي قناعتنا هذه.

مراد الثالث مربع القامة، وذو عينين دائريتي الشكل، ومقوس الحاجبين، وخرنوبي الشعر بحسب تاريخ صولاق زادة. ويوصف في مصادر أخرى بأنه مستدير الوجه، وصقري الأنف، ولوزي العينين الواسعتين، وصغير الفم، وفتح البشرة، وأحمر الخدين، ومربع القامة، وخرنوبي الشعر، وخفيف اللحية.

تلقى مراد الثالث عندما كان أميراً الدروس على يد شيخ الإسلام المؤرخ الشيخ سعد الدين أفندي، وهو ابن حسن جان نديم سليم الجبار الخاص، وتربى على يده.

من خصائصه الغربية أنه نادراً ما خرجت لا من لسانه، وهذا مؤشر مهم يعكس شخصيته.



لوحة لفنان إسباني يصور فيها "مراد" الثالث في غاية الأناقة (القرن السابع عشر).

كان مراد الثالث ماهراً باستخدام السلاح وبالفرسية (كان فارساً فائقاً بحسب تعبير يحيى بستان زادة)⁽¹⁾، وفي الوقت نفسه يصنع رؤوس السهام في أوقات فراغه.

حان وقت التعرف إلى أول السلاطين الخطاطين المهمين. يذكر مستقيم زادة في كتابه الذي يعرف بالخطاطين والمعنون تحف الخطاطين أن "مراد" الثالث من الخطاطين الجيدين في خطوط الثلث والنسخ والتعليق (تقول المصادر إنه تلقى دروساً بخط النسخ والتعليق على يد الشيخ شوجا القسظاموني شيخ الطريقة الخلوتية)، وله لوحتان معلقتان على طرفي المحراب في أيا صوفيا إحداهما كتب بها الشهادتين، والأخرى آية. مع الأسف، إن هذه الأعمال مفقودة اليوم. الحمد لله أن لدينا لوحة تعليق جلي له في متحف فنون الخط للأوقاف التركية. وديوان المنير في مكتبة جامعة إسطنبول مكتوب بخطه. ولا بد في هذا المقام من الإشارة إلى أن مصطفى علي الغليولي أهدى كتابه مناقب المهرة الذي يتحدث فيه عن الخطاطين والفنانين لمراد الثالث⁽²⁾. وهذا أحد الأدلة على اهتمامه بفن الخط والفنانين. والمعروف أنه صاحب ذائقة في فن التذهيب أيضاً⁽³⁾.

اهتمام السلطان مراد الثالث بالفن والأدب وصل إلى مستوى لافتاً للأنظار. فقد كتب أربعة دواوين بالتركية والعربية والفارسية (حبذا لو نفهم مدى عظمة هذا الإنجاز!) وكتب رسالة مهمة بالتصوف عنوانها فتوحات الصوم (ولكن هذا العمل مفقود). غير هذا، وصلنا بأنه كتب عملاً بعنوان أسرار الرسالة الذي شرحه شمس الدين سيواسي أحد شيوخ ذلك الزمان.

ديوانه المكتوب بالتركية، واستخدم فيه الاسم الفني مرادي واحد من أكبر دواوين الشعر التركي الكلاسيكي. يضم ديوانه 1566 قصيدة على بحر الغزل. وإذا لم يصل إلى رقم جده القانوني بكتابة هذا النوع من القصائد، فقد اقترب

(1) يحيى أفندي بستان زادة، التاريخ الصافي / تحفة الأحباب، إعداد نجدت صفا أوغلو، إسطنبول 1978 منشورات ملييت، ص 106.

(2) علي رضا أوزجان، مصدر سبق ذكره، ص 98، أوزماين إر، مصدر سبق ذكره، ص 80.

(3) إلبير أورتاي، إعادة اكتشاف العثمانيين، إسطنبول 2006، منشورات تيماس، ص 112.



اكتسب القلم قيمته
العظيمة بفضل رعاية شيخ
الطريقة القادرية. لماذا
وجد جناب حضرة الشيخ
الشرف في بغداد على طرف
الصحراء. مرادي (مراد
الثالث).

من ذاتي صاحب أحد الأرقام القياسية بالكتابة على بحر الغزل.
شرح الأدباء الكلاسيكيون بعض قصائد مراد الثالث. وقد طور ذائقته
الشعرية إلى درجة أنه كان يردُّ على تقارير الصدر الأعظم نظماً. هاكم هذا
المثال:

أخلص بتدقيق هذا الكتاب	تحظُّ بالأجر بالتأكيد
إذا وجد مراد هذا مناسباً	طلبت هذا ليكون جميلاً
مراد ملتزم بالعقد والعهد	وفق الله أهل الحل والعقد

وفي إحدى غزلياته يُسمع صراخ العاشق المُعاني من الهجران، الباحث
عن حبيبته:

أرأيت حبي يا نسيم الصبا
قل لي هل رأيت روحي
هل رأيت كنعان يوسف

لا تقطع الخبر عن الكرم والبيت
 هل رأيت الحبيب المؤنس
 جبت العالم شرقاً وغرباً
 فهل رأيت مثل همي وحزني
 أخبرني يا مرادي اليقين
 هل رأيت دواء لدائي؟

نستدل من قفطانات مراد الثالث المعروضة في قصر طوب قابٍ أن ذوقه رفيع جداً بالقماش. كان شغوفاً بارتداء الألبسة الفخمة، ومتعلقاً بشدة بالمجوهرات والحلي. كان يضع ريشاً ومجوهرات على لفته لا تقدر بثمن. ندرك سلامة ذوقه في ميدان تنسيق الحدائق من خلال أمره بزراعة السرو على سفوح أسوار الأناضول. غير هذا، فهو الذي فتح شاطئ البوسفور الزمردي للإعمار بالمعنى الحقيقي، أي إن مراد الثالث هو فاتح بوسفور العثمانيين الحقيقي.

ومن المعروف عنه أنه أحب الموسيقى والرقص، وجمع حوله الموسيقيين والراقصات والمهرجين والأقزام. (لنوضح هذه الحقيقة: كان الأقزام جزءاً لا يتجزأ من القصر).

أما حب مراد الثالث للكتاب فقد وصل إلى درجة مذهشة. يُفهم من الترجمات التي طلب إنجازها أنه كان محباً لقراءة الكتب، وخاصة التي تتناول حروب حكام عصره، وراغباً بمعرفة كل شيء حول تاريخ العالم. من بين تلك الأعمال كتاب تاريخ الهند الغربية لمحمد سعودي الذي طُبِع في ما بعد في مطبعة متفرقة (هذا أول كتاب تركي - عثماني يكتب عن اكتشاف أمريكا⁽¹⁾)، وتاريخ ملوك فرنسا الذي أعده أحمد بيك فريدون، وكتاب سيفي چلبلي الأسر

(1) لم يتم التوقف كثيراً عند ترجمة هذا الكتاب بهدف التعريف بالقارة الأمريكية التي اكتشفها كولومبو بعد تسعين سنة من اكتشافها، وعلاقة هذه الترجمة بخرائط الريس بير. هناك استثناء واحد: توماس د. غودريتش "The Ottoman Turks and The New World" في عمله: "Wiesbaden 1990, Otto Harrasowitz".

المالكة في آسيا.

كان لدى حفيد القانوني الغريب هذا اهتمام بعلم النجوم والفلك إلى درجة سماحه لتقي الدين أفندي ببناء مرصد على سفح غلاطة، حتى إنه دفع في سبيل ذلك من جيبه تسعة آلاف ذهبية. كان يستمتع بالاجتماع مع العلماء. بقي المرصد يعمل سبع سنوات إلى أن هُدم عام 1580، وهذا لا علاقة له بتصاعد التعصب الديني في الدولة العثمانية كما يدعي البعض⁽¹⁾. لم يكن طلب شيخ الإسلام في ذلك الوقت هدم المرصد لأنه يجري رصداً علمياً، بل لأنه اهتم أكثر بالخرافات. لا بد لنا من معرفة أن المراصد في تلك الأيام اهتمت بتحديد ساعات الحظ، واستنباط بعض الأحداث الدنيوية والتوقعات وما شابه ذلك من فعاليات غير علمية من وضع النجوم، وكانت تأخذها مأخذ الجد. (تاريخ هدم المرصد 4 ذي الحجة 987/22 كانون ثاني 1580)⁽²⁾.

وصلنا بحسب الوثائق الواردة في المصادر أن لمراد الثالث اهتماماً خاصاً بالساعات، ومن كبار الساعاتية الذين عاشوا في عهده عالم الفلك الشهير تقي الدين أفندي، إضافة إلى المعلم حسن، وحسين بروانة، ورستم آغا⁽³⁾.
تورد بعض المصادر أنه كان شغوفاً جداً بالنساء، وأن لديه مئة وولدين، وهذه معلومات خيالية بالتأكيد. نعرف أن 49 ولداً وُلدوا له، ولم يعيشوا كلهم. ورواية أن سبع جاريات لديه وجدن حاملات بعد موته قريبة من المنطق⁽⁴⁾.
ولادة أول توأم في القصر حدثت في حَرَمه، ومات التوأم الأميران جيهان غير وسليمان قبل أن يتما ستتهما الأولى.

يدعي مصطفى علي غليبولو في كتابه كُنه الأخبار أن الرشوة دخلت القصر

(1) Dimitri Kitsikis, "L'Empire ottoman", PUF, Paris, p. 88.

(2) أكمل الدين إحسان أوغلو، وصول تقاليد العلم الإسلامي إلى القمة غوستري، العدد 212، تموز - آب 1999، ص 34-37. اليوم والشهر صحیحان، ولكن السنة الهجرية هي 1580 وليست 1573. وسبع السنوات فرق التاريخين كما ترون مدة طويلة ولا يمكن الاستهانة بها.

(3) أوغور كوغطاش، الساعاتية في إسطنبول القديمة، إلغي، العدد 103، شتاء 2002، ص 5.

(4) وحيد تشابوك، "تاريخ العثمانيين" المجلد الخامس، ص 91. هـ. أحمد قرق قلتش، "السلطان مراد الثالث"، إسطنبول 1988، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ص 15.

العثماني أول مرة في عهده. هذا الادعاء ناجم عن عداوة شخصية بين علي والوزير شمسي باشا المدعى أنه الراشي. لهذا ينبغي ألا يؤخذ الادعاء بأن شمسي باشا أقنع سلطان السلاطين بقبض أربعين ألف ذهبية رشوة مأخذ جد⁽¹⁾. قلنا إن الثقافة العثمانية الكلاسيكية تأسست في عهد مراد الثالث. تقليد إحياء الليالي المباركة التي نسميها قناديل تعد من إنجازاته أيضاً. بدأ هذا التقليد بأمره إشعال القناديل في المساجد في ليالي الرغائب: أول ليلة جمعة من رجب، وليلة المولد، وليلة الإسراء والمعراج، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، وفي عيدي الفطر والأضحى⁽²⁾. غير هذا، من إنجازاته تنظيف قنوات جر المياه إلى مكة، وإنشاء مدرسة دينية ومطعم كبير للفقراء، ومدرسة، وزاوية في المدينة المنورة، وإنشاء مقام للشيخ يحيى أفندي في بشك طاش.

بالتأكيد هذا ما يُتوقع من سلطان كتب رسالة صوفية حول الصوم.

(1) لمعلومات أوسع انظروا إلى: مصطفى أرمغان، "الوجوه والأقنعة في التاريخ العثماني"، إسطنبول

2005، منشورات تيماش.

(2) هـ. أحمد فرق قلتش، السلطان مراد الثالث، إسطنبول 1988، منشورات وزارة الثقافة والسياحة،

صانع الملاعق والحفار: محمد الثالث (1595-1603)

كثيراً ما انقطع عن الطعام والشراب لتأثره بسبب تمرد
جلالي والوضع في فارس.

إسماعيل حقي أوزون تشارشلي

جلس محمد الثالث على العرش تسع سنوات، وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. تصفه المصادر بأنه متوسط القامة، وخرنوبي الشعر واللحية، تقاسيم وجهه مريحة، وهو قريب من القلب. يُنتقد عموماً لأنه كان تحت تأثير والدته السلطانة صفية.

بُشِّرَ جده الأكبر القانوني بولادته أثناء إحدى الحملات، فقال ملمحاً لعلاقة مراد الثاني بالسلطان محمد الفاتح: "من كان مراداً من أجدادنا سمي ابنه محمداً، فليكن اسمه محمداً" وهكذا سمي "محمد".

كان السلطان محمد الثالث ماهراً بصنع الملاعق، ويطعم مقابض بعضها باللؤلؤ والمرجان والياقوت والزمرد وغيرها من الأحجار الكريمة، والمعروف أن أعماله كانت تحظى بتقدير الحفارين⁽¹⁾.

وهناك من يقول إنه كان يصنع خواتم العاج التي يلبسها رماة السهام بإبهاماتهم. وبفضل هذا الفن، صار عضواً بأخوية صناع الخواتم. وانتساب سلطان إلى أخوية مهنية بسبب مهارته يُقدم لنا دليلاً مهماً على استمرار السلاطين بدعم الأخويات المهنية.

لم يكن محمد الثالث موسيقياً كوالده، ولكنه شجّع الموسيقى، وكانت لديه أذن موسيقية جيدة. ونعرف أن أحب المقامات إلى قلبه مقام سيكاه.

وصلنا أن الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنكلترا أرسلت أورغن هدية

(1) إسكندر بالا، سلاطين الكلام، التحف والديكور، العدد 50، كانون الثاني 1999، ص 68.



لوحة نصفية لمحمد الثالث في متحف وارسو الوطني في بولونيا، رسامها مجهول.

للسلطان محمد الثالث من أجل تطوير العلاقات مع الدولة العثمانية، وفتح مصدر رزق جديد لتجارها. ونعرف أيضاً أن المعلم المدعو دالام الذي كُلف بصناعة ذلك الأورغن الضخم قد جُلبَ إلى إسطنبول، وركّبه بنفسه، وبقي الأورغن فترة، واستُخدم في القصر. ويُخبرنا مصطفى صافي في كتابه المعنون زبدة التواريخ أنه صدر أمر بتحطيم ذلك الأورغن، في عهد أحمد الأول "بسبب وجود صور عليه".

يجب ألا تُدهشكم هذه الحادثة، لأنه وبحسب المعلومات التي أوردتها

ستانلي مايس الذي كتب كتاباً حول هذا الأورغن، فقد أعلن المذهب التطهيري المسيحي حرباً على آلات الأورغن، وحاول استصدار تشريع قانوني يزيل هذه الآلات الموسيقية من دور العبادة. ورفض مجلس ممثلي الكنائس الأدنى قرار إزالة آلات الأورغن من دور العبادة بفارق صوت واحد فقط عام 1563. وخلال عدة سنوات تلت، فُك أكثر من مائة أورغن من دور العبادة، وبيعت أنابيبها المصنوعة من الرصاص والقصدير لصناع الأطباق الذين يستخدمون هذه المادة⁽¹⁾.

كانت الملكة إليزابيث الأولى تراسل والدة السلطان محمد الثالث، وتغني كل منهما خزانة الأخرى بالهدايا. وتخبرنا تلك الرسائل بأن الملكة سمعت مديحاً لمواد التجميل التي تستعملها نساء القصر العثماني، وطلبت نموذجاً منها، فأرسلت لها ماء لتنظيف الوجه، ومراهم مغذية⁽²⁾.

تذكر بعض الكتب أن "محمد" الثالث كان يكتب شعراً متوسط السوية، وميلاً إلى التصوف، ويستخدم الاسم الفني "عدلي" أو "عدني" مثل بيازيد الثاني. يعبر هذان البيتان اللذان يتوسل فيهما إلى الله عن هذا المعنى:

أسرني الحبيب بسلاسل سالفه

أتمنى من الله ألا يعتقني من هذا الأسر

ألهبني هم هجران الحبيب وأعياني

خلقني الله كي أتلوى بهموم كالنار

(1) ستالي مايس، أورغن السلطان، ترجمة: م. حليم سباتار، إسطنبول 2000، منشورات إتش/التواصل. وقد نُشرت ترجمة جزء من كتاب مايس خلال السنوات السابقة. انظر إلى: الأورغن الذي أهدته الملكة إليزابيث الأولى لمحمد الثالث، ترجمة: بدرية شاندا، مجلة الحياة تاريخ، العدد 10، تموز 1968، ص 72. وللإطلاع على تقييم خاص للكتاب انظروا إلى: مصطفى أرمغان، العثمانية آخر جزر الإنسانية إسطنبول 2006، منشورات كتب أفق، ص 256-258.

(2) للإطلاع على رسائل إليزابيث الأولى للسلطانة صفية، وطلب الملكة مواد تجميل من إسطنبول، انظروا إلى: جيرالد ماكلين، Introduction: Re – Orieting the Renaissance، تحرير جيرالد ماكلين، "Re – Orienting the Renaissance: Cultural Exchanges with the East" – نيويورك 2005، Palgrave – McMilan، ص 16-17.

أما بالنسبة إلى تديّنه فقد كان محمد الثالث محافظاً على الصلوات الخمس جماعة، وشديد الاحترام لسيدنا محمد ﷺ، واعتاد على النهوض كلما ذكر اسمه⁽¹⁾. يقول آخر المؤرخين العثمانيين الرسميين عبد الرحمن شرف بيك: "كان عابداً وزاهداً، وحسن الطباع".

(1) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، المجلد الثالث، ص 115.

سيمفونية للحصان: أحمد الأول (1603-1617)

يروى أن ألبسته كانت بسيطة جداً، وكان يفضل النسيج الخشن ويتحلى بأخلاق الدراويش.

زيانور آقسون

دخلت الدولة العثمانية القرن الرابع عشر بعهد عثمان غازي محلقة بجناحين. أنجز السلطان بيازيد الصاعقة العبور إلى القرن الخامس عشر، وخطت الدولة العثمانية نحو القرن السادس عشر خطوة أخرى مع بيازيد آخر، أما الحاكم الذي حملها نحو القرن السابع عشر فهو محمد الثالث. ولكننا نرى توقيع أحمد الأول بصفته أصغر حاكم جلس على العرش بعد وفاة محمد الثالث في السنة الثانية من ذلك القرن أكثر من طبع القرن السابع عشر بأثره. وحافظ على لقب أصغر من جلس على العرش حتى جلوس حفيده محمد الرابع الذي جلس في السابعة من عمره. (إذا أردنا المتابعة فإن الدولة العثمانية دخلت القرن الثامن عشر بمصطفى الثاني، والتاسع عشر بسليم الثالث، والقرن العشرين - أقصر القرون - بعبد الحميد الثاني).

يكاد يكون حظ السلطان أحمد الأول قد ارتبط بالرقم 14. فقد جلس على العرش في الرابعة عشرة من عمره، وهو السلطان العثماني الرابع عشر، واستمرت مدة حكمه أربع عشرة سنة. أما عندما توفي فقد كان بعمر يبلغ ضعف الرقم 14، أي في الثامنة والعشرين. غير هذا، فقد جلس على العرش سنة 1014 هجرية، وبعد أن نام طريح فراش المرض 14 يوماً، توفي يوم الأربعاء في 14 تشرين الثاني 1617. بحسب ألدرسون فقد توفي بالحمى التيفية، ويرى شيهسوار أوغلو أنه مات "بآلام معدة وأمعاء مزمنة وفظيعة"⁽¹⁾. وهو أول سلطان عثماني

(1) بديع ن. شيهسوار أوغلو، بحث في نهايات السلاطين العثمانيين وأسباب وفاتهم من منظور تاريخ

ختن بعد جلوسه على العرش⁽¹⁾.

كان أحمد الأول هاوياً للعب النّبوت. ويعرف عنه أنه كان يخرج إلى الصيد أحياناً في بورصة وأدرنة إضافة إلى المناطق القريبة من إسطنبول. ولكنه كان متعلقاً بما يرافق الصيد أكثر من الصيد نفسه. وكان يحب نزهة القارب عبر نهر طونا في أدرنة بصحبة أولاده.

كثيراً ما كان أحمد الأول ينظم رحلات صيد في أدرنة وإسطنبول. بحسب ما ورد في تاريخ نعيمة فقد جلب زورقاً خاصاً من إسطنبول لتلبية رغبته بالخروج من القصر إلى ساحة الصيد عبر النهر. وبحسب سجل دفتر المهمات رقم 80 فإن أحمد الأول كان يرفض دخول الغرباء إلى ساحة الصيد التي يمارس فيها هوايته. لأن الداخلين من الخارج يخفضون مكانة السلطان من جهة، ويقللون عدد طرائد الصيد من جهة أخرى. وقد منع سفراء البندقية وإنكلترا وفرنسا وهولندا من الصيد في كاغتهانة وكمرلر بموجب قرار⁽²⁾.

وصل حب السلطان أحمد الأول للخيل إلى الذروة، وأراد أن يقرأ بعض الكتب حول هذا الموضوع، فطلب ترجمة كتاب حول الخيل عن العربية. ثمة 164 منمنمة عثمانية في ذلك المخطوط الموجود في مكتبة متحف طوب قاب، والذي يُقسم إلى فصول عن البيطرة، ورعاية الخيل، وتدريبها، والصيد⁽³⁾. وسنقرأ لاحقاً عن أصدقاء حبه القوي للخيل لدى ابنه عثمان الثاني ومراد الرابع.

كان قوي البنية وماهرأ باستخدام السلاح. رمى ذات مرة ششبري (صولجان حديدي بستة أفاريز) من فوق برج ارتفاعه 30 متراً إلى مسافة 500 متر، ونُصبت

الطب. مؤتمر التاريخ التركي الخامس (أنقرة 12-17 نيسان 1956)، "تليغات السلطان للمؤتمر"

أنقرة 1960، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 399.

(1) نظمي سفغن، الحاكم الذي خُتن بعد جلوسه على العرش: أحمد الأول، عالم التاريخ، العدد 14 تشرين الأول 1950، منشورات مجمع التاريخ التركي.

(2) رسوخي بايقرة، منع الأجانب من الصيد في عهد السلطان أحمد الأول عالم التاريخ، العدد 7، 15 حزيران 1950، ص 600-601.

(3) الشيخ محمد قاضي زادة، الكتاب المقبول: الخيل بنظر أجدادنا إعداد طاهر غالب سراطلي، إسطنبول/ بلا تاريخ، ص 52، متين أند، الحصان عند الأتراك القدماء سكاى لايف، 10/ 2003، ص 120 (نص إنكليزي مواز).



أحمد الأول بالنسبة لرسام غربي.

شاخصة حجرية حيث سقط الششبري.

ويُعرف من حجر الشاخصة المكتوب اسمه عليها، والمؤرخة 1015هـ أنه كان يتدرب على رماية النبال أمام قصر داوود باشا⁽¹⁾. خاصته الثانية هي انتسابه إلى أخوية صانعي الأقواس لأنه كان يصنع خواتم عاجية للرماة. ويشار كدليل على مهارته في الرماية أنه أطلق سهماً عن سور إسطنبول، فقطع فراسخ⁽²⁾. لا تتساءلوا كيف تمكّن من كل هذا في هذا العمر، لأنني سأعرج على ميزة أخرى من مميزات أحمد الأول، الذي كان أيضاً صانع ملاعق مثل والده محمد الثالث.

(1) قايا ألب، مصدر سبق ذكره، ص 73.

(2) نجدت صقا أوغلو، أحمد الأول/ موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، المجلد الأول، إسطنبول 1993، ص 108.

وبالمناسبة، يمكننا في هذا المقام ذكر أنه كان ماهراً بصنع السياط الشركسية التي يهديها لمن يريد أن يقدره من رجال الدولة.

كتب السلطان الشاب شعراً، وكان جيداً. وقد استخدم الاسم الفني بختي على الأغلب، وله ديوان صغير باسمه⁽¹⁾. (يساوي اسم بختي في حساب الجمل 1012، وهو تاريخ جلوس أحمد الأول على العرش). ولكن، نظراً لكثرة المشاكل الداخلية والخارجية التي شهدتها عهده، من الطبيعي أن يكون اهتمام أحمد الأول بالشعر مجرد نزوة، وألا يكون كبيراً⁽²⁾. ولُحنت بعض قصائده مثل القصيدة الدينية التي مطلعها:

لِيُمَلِّأَ الْقَلْبَ بِالنُّورِ نُورَ ذِكْرِ اللَّهِ
لِتَعْمَرَ دِيَارَ الْقَلْبِ وَمَعْمَارَهَا ذِكْرَ اللَّهِ

(يقول سعد الدين نزهت إرغون إن عازف الناي عثمان أفندي لحن هذه القصيدة بأسلوب دو يك) وقد طبع ديوانه مع تحليل له بالأحرف اللاتينية⁽³⁾. وهناك بين قصائده بعض النماذج التي تناولت البطولات كما في هذا المثال:

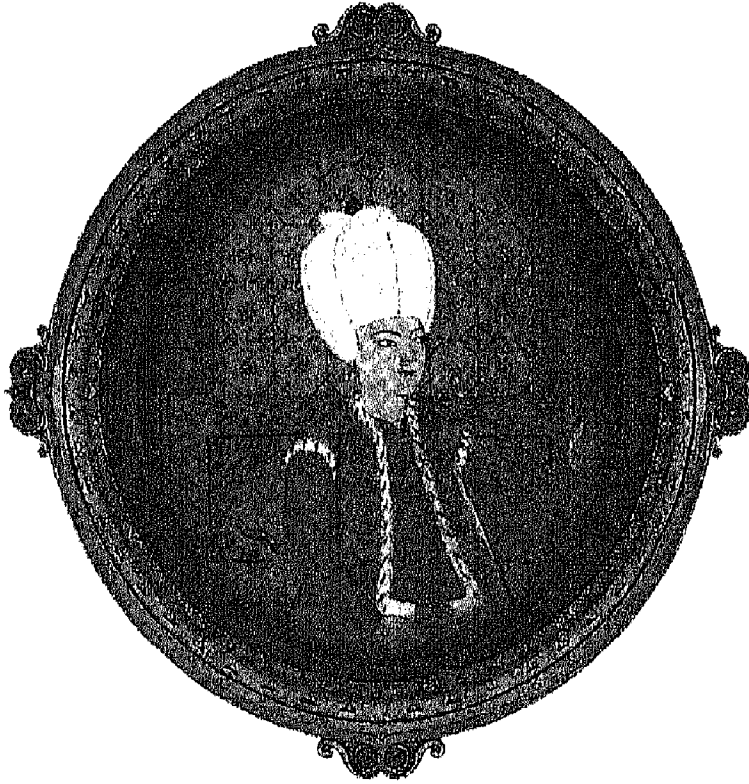
يا ضاربي الكفرة بالسيف بعظمة
أستودعكم الجبار من روعي وقلبي
أهديكم سلامي ودعائي بأن يجعل
العدو يائساً لا يستطيع إيذاءكم
احذروا إخراج اسم الله من قلوبكم

(1) مجتبى إغوزل، أحمد الأول الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد الثاني، إسطنبول 1989، ص 32.

(2) بختي أحمد الأول، موسوعة اللغة التركية وآدابها، المجلد الأول، إسطنبول 1977، منشورات درغاه، ص 298.

قايا ألب، مصدر سبق ذكره.

(3) قايا ألب، مصدر سبق ذكره.



منمنمة تُظهر السلطان الفتى أحمد الأول ولم تُخط شارباہ بعد عندما جلس على العرش وهو في الرابعة عشرة من عمره، وتعبّر عن حقيقة السلطان أحمد. هذا لو رأينا رسماً للفاتح دون لحية وشاربين.

في الحرب، واطلبوا العفو من الغفار
أتمنى من الله أن يأتيكم الملك مهزوما
متوسلاً تسليمكم المدينة والأسوار
يا أحمد ادع للمجاهدين بالخير دائماً
إن كنت تريد الهدى أن يكون معينا

يعتبر من أكثر السلاطين حساسية نحو القضايا الدينية. اعتبر رؤيته أثر قدم سيدنا الرسول ﷺ في حلمه تحذيراً، فأعاد سلطان المماليك قيتباي بعد عزله، ولكنه أمر برسم أثر القدم تحت ريشة اللفة وفي وسطها مئذنة زرقاء، وكتب المقطع الشهير، وأرسله إلى الشيخ عزيز محمود هدائي الذي يحبه ويحترمه كثيراً. يقول في ذلك المقطع:

يا ليتني حملت على رأسي دائماً
أثر قدم سلطان الأنبياء تاجاً
أثر القدم ذاك وردة حديقة النبوة
هيا يا أحمد، امسح وجهك بها

كان السلطان أحمد الأول يضع تلك الريشة تبركاً في مراسم أيام الجمعة والأعياد، وقد خصص خزانة منفصلة لليتامى، وقدم التبرعات من تلك الخزانة. مساعداته للحرمين الشريفين وحدها تشكل موضوع بحث. فقد أرسل ثلاثة قناديل مرصعة بالأحجار الكريمة إلى الحرمين عام 1610 ليُعلق اثنان منهما في الكعبة المشرفة، والثالث في الروضة المطهرة في المدينة المنورة. وأهدى الروضة المطهرة ألماسيتين بقيمة ثمانين ألف ذهبية لتوضعا "كوكب الدرّة" الذي يبرق مقابل قبر سيدنا الرسول ﷺ. وأرسل شبكاً فضياً مُغطساً بماء الذهب ليوضع حول لحد قبر سيدنا الرسول، واستجلب الشبكة القديمة لتوضع حول قبره تبركاً⁽¹⁾.

وقد بنى جامع السلطان أحمد ليكون نفحة من روح خالدة لإسطنبول، وكان مرتبطاً بالشيخ عزيز محمود، أي إنه بالنتيجة درويش. وهذا سبب ارتدائه ملابس في غاية البساطة. وتفيد الروايات أنه كان يمسك إبريق الوضوء لشيخه، ويسير خلفه تعبيراً عن احترامه الكبير له. ونذكر أنه مرتبط بالمولوية من خلال البيت التالي الذي ينهي فيه قصيدة على بحر الغزل⁽²⁾:

يا بختي! كن خادماً في تكية مولانا
لأنه سلطان عرش سلطنة الدنيا المعنوي

(1) محمد الأمين المكي، خدمات سلاطين العثمانيين للحرمين، ص 54.

(2) الناقل: حسن ألكسة، الحكام المتصوفون، إسطنبول 2004، منشورات أو كول، ص 159.

السلطان العازب: مصطفى الأول (1617/1618-1622/1623)

السلطان مصطفى مجذوب لله وهو سلطان درويش،
ولإهماله شؤون الدنيا خبا بريق نجم الدولة...

شيخ الإسلام يحيى أفندي

حياة كل من السلاطين العثمانيين الأربعة الذين أنا سميهم أغرب من الأخرى. أطلق على مصطفى الأول في كتب تاريخ مرحلة الجمهورية لقب المجنون، وبهذا اللقب تذكره الكتب القديمة أيضاً، ولكن سداة قمقم أسراره لم تُفتح بعد، ويجب أن تُبحث شخصيته بعناية أكبر.

السلطان مصطفى الأول بحسب المصادر وسيم الوجه، وخفيف اللحية، وواسع العينين السوداوين، وخابي النظرات. كما أنه ضعيف، وضئيل القد، وشاحب، ومهموم. كانت تقاسيم وجهه الجميلة تعطيه شكلاً وسيماً، وكانت نظرتة بريئة كنظرة طفل صغير.

تقول بعض المصادر إنه مريض عقلياً، أي إنه مجنون، وتقول أخرى إنه مجذوب. ويقول مؤرخ ذلك العصر نعيمة إنه ترك تاجه وعرشه وهو سلطان سلاطين، ولحق الدروشة.

الخاصية الأخرى لمصطفى الثاني أنه اشتهر بين الناس بلقب الولي. يكتب أنور بهنان شابوليو أنه منتسب إلى الطريقة الخلوتية.

وهو السلطان العثماني الوحيد الذي لا يُعرف اسم أمه على الرغم من جلوسه مرتين على العرش. ولا يعرف سبب هذا بالضبط. وفي مقالة نُشرت في الفترة الأخيرة يُشار إلى احتمال أن تكون والدته السلطانة حليلة اعتماداً على مخطوط⁽¹⁾.

(1) غونهان بوركتشي، عائلة مالكة على عتبة الانقراض: محمد الثالث، أحمد الأول، مصطفى الأول،

ولكنني أعتقد أن أكثر صفة لازمتها هي عدم سماحه للنساء بالاقتراب منه. لهذا السبب عاش ومات عازباً وسط كل ذلك العدد من الجواري في حرم القصر. بمقولة أخرى، لم يمد يده إلى أي امرأة، لذلك لم يُخلف. هذا الجانب فقط يكفي لجعله غريباً. (سنرى لاحقاً أن الحفيد عثمان الثالث ورث طبعه). هناك من يتحدث عن رميه الذهب للأسماك في بركة القصر، ونثره النقود يميناً ويساراً. ولكن يجب عدم تجاوز نميمة الحرم. كتب البعض عن ملئه البركة المكشوفة بالحليب، واغتسال الجواري بها. ولكن يبدو أن أولئك لم يحسبوا كم طناً من الحليب يحتاج ملء بركة ضخمة، وأن حمام الحليب كان ميزة بعض أفراد النخبة⁽¹⁾.

والأزمة السياسية العثمانية في القرن السابع عشر الديوان: مجلة الدراسات بين حالات الانضباط، العدد 26، 1/ 2009، ص 58، والهامش 28. يقول الكاتب إن مصدر هذه المعلومة التي وجدها هي سلالة نامه مخطوطة ومسجلة في المكتبة الوطنية تحت رقم "MS 06 Hk 11/3".

(1) انظروا إلى: أورطايي، الحياة في القصر العثماني.

الحاكم المعاد إليه شبابه: عثمان الثاني (1618-1622)

كان فارساً خارقاً وماهراً باستخدام الأسلحة ولا مثيل له
بالشجاعة والفروسية. كما كان محبب الوجه ولطيف
الملامح، وحسن الطباع.

نعمة

يسمى عثمان الثاني عموماً عثمان الفتى، ويعود هذا اللقب لإعادة الشباب
إليه بعد أن اعتبره أنصار تركيا الفتاة (الأترك الشباب) ملهماً تاريخياً لهم بعد
إعلان المشروطية عام 1908.

يُذكر في التاريخ العثماني باسم "السلطان عثمان الثاني". جلوسه على
العرش في مقتبل العمر، ومقتله بشكل غامض وسيئ جداً بعد أربع سنوات
من جلوسه شكلاً حول اسمه هالة أسطورية. أراد أن يفعل الكثير، ولكن
الإمكانيات لم تسمح له بأن يفعل شيئاً، لهذا أعطى لنفسه صورة سلطان
السلطين الإصلاحية، (وحتى الثوري).

على الرغم من وجود جانب حقيقي في هذه الصورة، ولكن وثائق عهده لا
تثبت صحة الادعاء القومي التركي بأنه "أراد أن يذهب إلى الأناضول، ويشكل جيشاً
جديداً من الأتراك، ويعيد فتح إسطنبول، ويكسر هيمنة الإنكشاريين والمحولين
ديناً". كان عازماً على تشكيل جيش جديد من التركمان والعرب والأكراد، ومع
الأسف جزء "العرب والأكراد" ما زال محظوراً في عقلية التأريخ القومي لدينا.
المعلومات التي تفيد أنه أراد أن يحدث ألبسة الجيش، ويستبدلها بألبسة
مريحة تمكّن الجنود من الحركة براحة أكبر بدلاً من الألبسة الواسعة والطويلة
صحيحة. ولكن الذي ما زال محافظاً على غموضه حتى الآن هو ما إذا كان



الجو غائم جزئياً. السلطان الشاب في نزهة على حصانه الرمادي المحبب، وقد وضع على رأسه ريشتين وارتندي قفطاناً ووضع زينة فخمة.

هذا القرار قد تبلور بتأثير خارجي، أم نتيجة حاجة داخلية. خرق عثمان الثاني التقليد الذي بدأ في عهد الفاتح بالزواج من جواري القصر، وتزوج من عَقِيلَةَ ابنة شيخ الإسلام أسعد أفندي، وهذا الأمر يمثل في الحقيقة ثورة في موضوع الحرم. ونعرف أن هذا القرار لاقى معارضة حتى من الحمي، ويُفسر الأمر بأنه عدم الرغبة بدخول امرأة حرّة إلى حرم الجوّاري والإماء.

كان عثمان الثاني وسيم الوجه، وممشوق القد بحسب المصادر. ويعرف عنه أنه تلقى في القصر دروساً في العربية والفارسية والإيطالية واليونانية والتاريخ والجغرافية.

اهتم عثمان الثاني منذ طفولته بالسروج، وكان يصنع سروج خيوله التي يمتطيها عموماً. ومن أقسى سخریات القدر بالنسبة إليه أنه وُضع على حصان دون سرج حين وقع بيد الإنكشاريين واقتادوه من أجل قتله⁽¹⁾. لا يمكن قبول قتل سلطان سلاطين بهذه الطريقة الفظيعة. ولكن يجب ألا ننسى أن فتوته وجهله السياسي كانا سبباً بموته الذي دارت حوله الكثير من الأساطير، أو على الأقل حضراً الأرضية المناسبة للذين كانوا يحضرون للانقلاب.

تُبرز المراجع بشكل خاص أنه "مشاكس بالفطرة، وحاد ومتسرع بتنفيذ قراراته"⁽²⁾. ونستدل على شغف عثمان الثاني بالخيول من صناعته لسروجها. ولا يقارن أحد من أفراد الأسرة العثمانية المالكة بحبه للخيول سوى أخيه الأصغر مراد الرابع.

تعلم الفروسية من أمير الإسطنبول جنيد حيل. ومن المعروف أنه كلف المعماري سنان ببناء مزار خاص لحصانه المسمى: "سيسلي قِر/ الرمادي الضبابي" الذي يحبه كثيراً في حديقة قصر الصفصاف، وقد نُظفت آخر آثاره في أواخر القرن التاسع عشر. ويروى أنه أمر بنصب شاهدة قبر ارتفاعها 96 سم، وعرضها 62 سم فوق رأس الحصان الذي حزن حزناً شديداً على موته. كان إبراهيم حقي قونيايي آخر من رأى شاهدة القبر تلك التي تحمل تاريخ سنة 1619، وأخذ لها صورة وإن كانت بعض كتابتها ممسوحة، ونشرت في مجلة مجلس التاريخ العثماني⁽³⁾.

عبر عن حبه للخيول في شعره باستخدامه الاسم الفني "فارس". النسخة الوحيدة من ديوانه المكتوب بالتركية مودعة بين كتب جناح إيروان في قصر

(1) بالا، مصدر سبق ذكره، ص 68.

(2) مدحت سرت أوغلو، قاموس تاريخ العثمانيين، إسطنبول 1986، منشورات دار أندروم، ص 256.

(3) طبعت صورة تلك الكتابة المفقودة اليوم في عدد الأول من أيار 1341 من مجلة مجلس التاريخ العثماني. انظروا إلى: إسماعيل حقي ضانيشمند، "الحقائق التاريخية"، المجلد الأول، إسطنبول 1979، منشورات ترجمان للتاريخ والثقافة، ص 50-51. غير هذا، انظروا إلى: نجلا باشا أوغلو، "حب الحصان جعل السلطان عثمان الشاب يأمر ببناء قبر له في القصر"، الثقافة، العدد: 7، صيف 2007، ص 123-124. وكذلك الأمر يحكى عن مزار ذي قبة مرفوعة على ستة أعمدة رخامية ومكشوف من الجوانب في مقبرة قراجا أحمد، وكانت تدفن هناك خيول القصر القيمة.

طوب قابٍ برقم 741⁽¹⁾. ونورد هنا نموذجاً من غزله الذي يشرح معاناة الباحث عن العشق:

كما ترين فقد وقع القلب بالتيه
 كم عبرت لك عن عشقي يا سلطاني
 كوني تنهدي في الهجران يا فاتنتي
 رمشك برج على جرح قاتل بصدري
 وجهك زر وردة على غصن مياس
 جعلني أروضخ لعبوديتك أنا السلطان
 ماذا يقع لفارس إذا لم يحب جميلة
 بكر، أوقعته بالحب في عصر الكهّان

يُعرف عثمان الثاني بمهاراته في ألعاب المصارعة والفروسية والصيد والنبوت ورمي الكرة الحديدية، والأكثر في استخدامه السلاح. تشير المصادر إلى خاصية غريبة لديه لا تليق بالسلاطين: البخل. ويُذكر أنه خطاط، ولكن ليس ثمة معلومات كثيرة في هذا الموضوع⁽²⁾. كان السلطان عثمان الثاني يرتدي ثياباً مشابهة لما يرتديه أي فرد من الطبقة الغنية في حياته اليومية، لهذا لقبه الناس "عثمان تشلبي"⁽³⁾.

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، ص 586.

(2) إسرا كسكين قلتش، السلطان عثمان الثاني، إسطنبول 1999، منشورات شولة، ص 53-54.

(3) الشاعر العاشق والسلاطين، ص 21.

تشلبي: لقب يطلق على الشخص الذي يرتدي ثياباً أنيقة من العامة... المترجم

حاد في الأزقة، ممتع الحديث في القصر: مراد الرابع (1623-1640)

كَلَّفَ مهتدياً حُرّاً بترجمة كتاب الأمير لميكيافيلي، وقراه.

ساغريدو

عندما يُذكر مراد الرابع تخطر ببالنا لوحة شخصية مهيبّة لرجل في الأربعينيات من عمره احترق أصلها. ولكن "مراد" الرابع يدخل ضمن سلسلة السلاطين اليافعين التي بدأت مع والده أحمد الأول، واستمرت مع أخيه عثمان الثاني. تصوروا أنه كان في الثامنة والعشرين فقط عندما مات. وتصوروا أيضاً أنه كان في الرابعة والعشرين عندما خرج في حملة إروان، وفي السابعة والعشرين عندما خرج في حملة بغداد.

مراد الرابع متوسط القامة - وطويل بحسب بعض الروايات - وعريض المنكبين، وعريض العظام، وممتلئ الجسم، ولكنه سريع. شعره خرنوبي داكن، وعائد الحاجبين، وأبيض البشرة، ووسيم، ومشرق الوجه، وذو أنف معقوف وكبير قليلاً، ولحيته سوداء تزيد من مهابته⁽¹⁾. يحدد هامر اللون الزيتوني لبشرته، ولا نعرف قصده من هذا اللون. ولكننا نعرف من خلال رواية أوسكار وايلد صورة دوريان غراي أن اللون الزيتوني كان يوصف به شاحبو الوجوه⁽²⁾.

بالإضافة إلى معرفتنا بميل مراد الرابع إلى الأسلحة، إلا أنه كان صانع أقواس ماهراً. وثمة روايات تفيد أنه كان مهتماً بالمدفعية، وقد أطلق المدفع

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد 3، ص 586. انظروا كذلك إلى: منير سيرز، السلطان مراد الرابع والدول الأوروبية، مجلة الحياة تاريخ، العدد 12، كانون الأول 1975، ص 33.

(2) "كان يهتم بوجهها زيتوني اللون الطافح بالحيوية، ونظرتها المتعبة" أوسكار وايلد، صورة دوريان غراي، ترجمة صلاح الدين هيلو، إسطنبول 1968، منشورات فارلك، ص 25.

بنفسه مرات عدة⁽¹⁾.

كان مصارعاً جيداً كأخيه الأكبر عثمان الثاني، وماهراً برمي الرمح والكرة الحديدية مثله. كان شهيراً بتسديده النبال بأقواس لا يستطيع أحد شدها. يُروى أنه ثقب بالحربة والنبال باب قصر طوب قاب الحديدية (يقال إنه كان مصنوعاً من الفضة) والدرع المصنوع من جلد الكركدن الذي أرسله حاكم دولة مغول الهند (بابور) الشاه جيهان بين عدة هدايا سُلمت له في الموصل أثناء سفره في حملة بغداد، ويُقال إن هذا الدرع لا يخترقه الرصاص. وقد سقط السهم الذي أطلقه من قمة قلعة حلب بجوار حي سراج خانة. والرمح الذي أطلقه من حديقة البناء المركزي لجامعة إسطنبول اليوم سقط عند أسفل مئذنة جامع بيازيد، وأثبت مهارته برمي النبال في مناسبات عديدة.

يُعتبر مراد الرابع أحد أشهر لاعبي المطراق (لعبة رياضية قديمة بالعصي الغليظة من الأمام). تشير المصادر إلى أنه كان يستخدم صولجاناً وزنه مائتا أوقية، وكان ماهراً باستخدام الأسلحة كالسيف والسكين العريض والسهم والحربة. تعلّم رمي النبال من أساتذته عصره عبد الرحمن أفندي حسام زادة، والحاج سليمان، ووصولاً صاري⁽²⁾.

اشتهر بفروسيته، ولكن شغفه بالخيل يحتاج إلى بحث مستقل. وفي راهشية الشاعر نفعي التي يتحدث فيها عن خيول مراد الرابع، يذكر أن لها أسماء مبتكرة مثل: الطيار، الصافي ذو الشعر، جلال، ظلمة الشام، مجنون الجبل، مرجان، ريح الصبا⁽³⁾.

كان يستطيع القفز من صهوة حصان إلى صهوة آخر أثناء عدوهما. (لا

(1) "كان يدخل بنفسه إلى المربض، ويسدد بالمدفع، ويحقق الإصابة بالعدو"، تاريخ بجوي، المجلد الثاني، الصفحة 442، الناقل: يلماظ أوزطونا، سلطان السلاطين في الدولة العثمانية، 4: فهُمُ مكانة سلطان السلاطين لدى الأتراك والأوروبيين مجلة الحياة تاريخ، العدد 4، نيسان 1976، ص 11.

(2) وحيد تشبوك، تاريخ العثمانيين العظيم من التأسيس حتى الجمهورية، المجلد الخامس، إسطنبول، 1999، منشورات أمرة، ص 369.

(3) رشاد أكرم قوتشو، السلطان مراد الرابع دنيا التاريخ، العدد: 7، 15 تموز 1950، ص 269.

إلبر أورطاي، الحياة في القصر العثماني إسطنبول 2008، منشورات يتك خزينة، ص 60.

بد أن هذا تدريب خاص بالقصر، لأننا سنرى لاحقاً أن الخليفة عبد المجيد كان يفعل هذا حين كان أميراً) كان ثمة ثلاثمائة إلى أربعمائة دابة ركوب جيدة، وأربعون إلى خمسين حصان سباق في إسطنبول القصر. غير هذا، لديه تسع خيول أصيلة خاصة به. عند وفاته، أُخرجت الخيول التي كان يحبها من الإسطنبول الخاص، ورُبطت عليها السروج بالمقلوب، وسُيرت أمام الجنازة وفق التقاليد التركية القديمة.

كان مراد الرابع يعرف العربية والفارسية، وكتب شعراً كلاسيكياً وشعبياً بالاسم الفني "مرادي". (من المفيد القول إنه لم يكتب بكتابه الشعر الشعبي، بل ساهم بانتشار هذا النوع من الشعر، وبنشأة كبار شعرائه). ونعرف أن الشعراء كتبوا ردوداً على أشعاره.

ولكن واقعة لا نعرفها وقعت لديوانه، وفُقد. أمّن السلطان ديوانه البالغ 200 صفحة لدى وهبي عثمان چلبلي كي يكمل نواقصه، وبموته فُقد الديوان. (يُروى أن "مراد" الرابع هو الذي أمر بحرق مدونة القانون التي تتضمن مادة الفاتح حول قتل الأخ).

قصيدته التي يردّ فيها على حافظ أحمد باشا والتي يدعو فيها إلى السرعة بنجدة بغداد على الوزن والقافية نفسيهما شهيرة. الرجاء الانتباه: كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة عندما كتب هذه القصيدة:

أليس ثمة بطل ينجد بغداد يا حافظ؟

أليس لديك جند لتطلب النجدة منا؟

كنت أقول: القضاء على الأعداء فرض

ألم يبق مكان نصول فيه بخيلنا أمام العدو؟

لا أحد يجاريك بالكلام يا صديقي أعرف

ولكن أما بقي لحصانك مكان صولة؟

أمر ببناء أفخم جناحين في قصر طوب قابٍ على شرف حملتين كبيرتين نظمهما إلى الشرق: (إيروان: 1636)، (بغداد: 1639). وضم جناح بغداد بشكل

خاص "نماذج للفن التركي الأرقى في القرن السابع عشر"⁽¹⁾. وقد أمر بإنشاء عدد من الآثار في طريق ذهابه وإيابه من حملتي إيروان وبغداد، ولهذا سمي نهر الفرات شمال الإطّغ باسمه، أي "نهر مراد" (يشير مولتكة إلى هذا في رسائله بشكل خاص). حين وصل إلى أضنة ألقى ثمانية ممن خرجوا لاستقباله بأنفسهم في نهر سيحون عن الجسر الحجري الشهير من أجل تقديم عرض يعبرون فيه عن ظلم الوالي⁽²⁾. إثر ذلك قام بعزل الوالي جعفر بيك. لا يمكن للإنسان ألا يُدهش من كثرة منجزاته في عمره القصير. على سبيل المثال، إن مساهمته بتطوير الموسيقى العثمانية كبيرة إلى درجة أنها تستحق بحثاً مستقلاً.

لقد دبت الحيوية بالموسيقى العثمانية وحققت قفزة كبيرة وانتشرت في عهده بعد أن وصلت إلى حالة من الجمود في أواخر القرن السادس عشر. عندما فتح تبريز، جلب معه اثني عشر موسيقياً (أشهرهم مصطفى آغا ششتاري) إلى إسطنبول، وأغنى مدرسة القصر بهم. يعتبر مراد الرابع أحد أهم كتاب فرقة المهتر العسكرية، وكتب كلمات أغاني ومقطوعات مختلفة. وقد وقّع بعض أغانيه باسم الشاه مراد.

قدّم يلماظ أوزطونا لائحة بكلمات خمس عشرة مقطوعة إحداها تلك التي تبدأ بشطر: "افتح عينيك واستيقظ من رقاد الغفلة" واحتل مكانة مهمة إلى اليوم في موسيقى التصوف. (تنسب هذه المقطوعة لمراد الثالث) وملحنها علي أفقي بيك الصنطوري. وكان مقام سيكا محبباً إليه بشكل خاص. ولما عرف الدرويش عمر وحدتي المطرب وأحد أهم ملحنين القرن السابع أن "مراد" الرابع يحب مقام السيكا، لحن أغانيه ومقطوعاته الموسيقية كلها على هذا المقام⁽³⁾. ونقل لنا

(1) زيا يلماظ إر، مراد الرابع، الموسوعة الإسلامية الصادرة عن الأوقاف الدينية التركية، المجلد 31، إسطنبول 2006، ص 182-183.

(2) قاسم إيزر، نظرة إلى سهل أضنا عبر التاريخ الطبعة الرابعة، إسطنبول 1960، مطبعة باقصوي، ص 237-238؛ وحيد تشابوق، "التاريخ العثماني العظيم من التأسيس إلى الجمهورية"، ص 355.

(3) إسماعيل حقي أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، أنقرة 1998، منشورات مجمع التاريخ التركي، ص 565.

معاصره أوليا چلبي أنه أدى كل ما قدّمه الدرويش عمر من أنواع المقطوعات الموسيقية. ويُعرف أن لديه أذناً موسيقية من تميزه لصوت أوليا چلبي في جامع أيا صوفيا.

يتحدث أوليا چلبي الذي حضر بين مطربي السلطان ومصاحبيه طويلاً عن جلسات الأدب والموسيقى التي كانت تعقد في حضرته، ويروي أنه كان يعقد في أمسيات أيام الجمعة اجتماعات يحضرها العلماء والمشايخ والحفظة، وينتقل في أمسيات أيام السبت إلى أداء قصائد المدائح النبوية بمشاركة العازفين والمطربين.

كان مراد الرابع يرغب بمعرفة كل شيء؛ وخاصة في مجال التاريخ. ويظهر ذلك جلياً من خلال كثرة الكتب المترجمة في عهده، وقد ورد في الكتب أن "مراد" الرابع كان بطلاً شغوفاً لا يمكن التغلب عليه في الشطرنج والداما. أما مهارته بالخط فمعروفة في خط التعليق الذي خطه بشكل جميل، وكان عبد الرحمن طولومجو زادة أحد تلاميذ الدرويش عدي أستاذه في الخط. (صار هذا الرجل لاحقاً شيخ الإسلام)⁽¹⁾. رغبته بالحصول على نماذج من الخط الجميل، وطلبه من الخطاطين مصاحف مكتوبة بخط جميل زادا من الاهتمام بهذا الفن في عهده. بعد التدقيق بالمصحف الذي طلبه من خطاط عصره الشهير محمد الإمام مقابل ألف ذهبية أصدر السلطان تعليقا على عمله، فرد الخطاط رداً طريفاً أعجب "مراد" الرابع، فدفع له ألف ذهبية أخرى⁽²⁾.

يُستدل على حب مراد الرابع للظرفاء من ضمّه أوليا چلبي عذب الحديث إلى مجلسه، وتقريبه إنجيلي چاويش المشهور بطرافته وروايته للنكات منه⁽³⁾. كان مراد الرابع أنيق الملبس، واختلف عن السلاطين الذين سبقوه بارتدائه ما يشبه لباس جنود البحرية. دخل إسطنبول عائداً من حملة إيروان مرتدياً الدرع،

(1) أوزون تشارشلي، مصدر سبق ذكره، ص 561.

(2) كمال تشغ، الخطاط الذي دفع له مراد الرابع عن كتابة المصحف 1000 ذهبية عالم التاريخ، العدد 23، 15 نيسان 1951، ص 982.

(3) جمال قوطاي، كيف أثر الحظر الأكثر دموية بإسطنبول؟ التاريخ يتكلم، العدد 18، تموز 1965، ص 1476.

وقد لف على خوذته لفة بيضاء وعليها ريشة ذات جوهرة سوداء. وعندما انطلق في حملة بغداد أيضاً وضع على خوذته ريشة، ولف شالاً أحمر، وأنزل نهاية الشال على كتفه كالطيلسان⁽¹⁾. وعندما خرج بالحملة نفسها كان عبد الحميد شيخني أفندي حاملاً سيف سيدنا عمر بشكل لفت الأنظار⁽²⁾. وعندما عاد السلطان من بغداد كان مرتدياً الألبسة نفسها، ولكنه أضاف إليها فراء فارسياً⁽³⁾.
تورد الكتب أن "محمد" چلبلي بن حسن الأعمى نديم محمد الثالث كان يقدم عرضي خيال ظل في حضرة السلطان مراد الرابع أسبوعياً. وبحسب المعلومات التي يوردها أوليا چلبلي فإن فرقتي سامورقاش وچلبلي من بين الفرق التي كانت تقدم له العروض.

أخيراً، إن أكبر إصلاحات الكعبة تمت بأمر من مراد الرابع بين عامي 1629-1630⁽⁴⁾.

(1) أوزون تشارشلي، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، ص 587.

(2) أحمد شمشيرغيل، "الجيش السلطاني على مشارف بغداد...: اليوم يوم الموت" التاريخ والحضارة، العدد 48، آذار 1998، ص 25.

(3) وحيد تشابوق، مصدر سبق ذكره، ص 370.

(4) محمد الأمين المكي، خدمات سلاطين العثمانيين للحرمين، ص 55-56.

الكاهن والسلطان

عُرف مراد الرابع بحزمه وحكمه بالإعدام على خارقى قانون منع التدخين والمشروب والأفيون. ولكن، لا أحد يتحدث عن الحرب التي شنّها ضد السحرة والمنجمين وضاربي الرمل. كان مراد الرابع يلاحق ممارسي هذا العمل بلا هوادة. وهناك قصة تحكى حول هذا الموضوع تناقض ما تقدم:

فقد اصطحب ذات يوم صيفي أحد رجاله من القصر وخرجا متنكرين. وعلى رأس كل منهما قبعة مخروطية، وعلى كتفهما حيدرية بهيئة المولويين. ركبا في مركب عام من سيركجي إلى أسكدار. وسط البحر، غمز السلطان رجله المتنكر بهيئة درويش، فأخرج مشربه، وبدأ بحشوه بالتبغ. فبدأ ركاب المركب بالصراخ فوراً.

وكان في المركب مغربي ذاع صيته في إسطنبول بضرب الرمل والسحر. فقال: "لا ضرورة للهلع، السلطان نائم الآن في الحرم". عندئذ ارتاح الجميع مما صرح به. فسأله مراد الرابع: "كيف عرفت هذا؟". قال الساحر المغربي: "حسن، حالك هذه تكشف أنك لست درويشاً". وأخرج من عنده ورقة وبدأ بضرب الرمل. ولكن بعد قليل صار شعره ولحيته كالقنفذ، وبدأ يتلوى قائلاً: "الرحمة، مدد يا الله، السلطان فوق البحر، وهو قريب جداً". بالطبع خاف الجميع واجتاحتهم موجة من الارتجاف إثر هذه العبارة. بعدئذ، قال مراد الرابع ضاحكاً: "أيها الصفيق! كيف ستنقذ رأسك الآن؟" وأمر بحارة المركب: "بالرجوع إلى إسطنبول فوراً!".

بينما كان البحارة هلعين خوفاً على أرواحهم، التفت مراد الرابع

إلى الساحر، وقال له: "في الحقيقة أدهشتني معرفتك بالضرب بالرمل إلى هذه الدرجة. أعفو عنك شرط. أن تعرف من أي باب سندخل إسطنبول؟".

قال المغربي مرتجفاً: "الفرمان فرمان السلطان". ونثر رمله، وكتب اسم الباب على ورقة، وطواها، وأعطاهها للسلطان. دس مراد الورقة في زناره من دون أن يفتحها. وعندما وصلوا إلى أمام أسوار إسطنبول، لم يرسُ المركب أمام أي باب إلى أن وصلوا يدي قولة، وتابعوا المسير إلى ما يسمى اليوم رأس صانديق. ونظراً لعدم وجود باب للأسوار في تلك الجهة، نهض السلطان على قدميه في المركب، ونادى على الحرس بصوت مجلجل. عرّف بنفسه للحراس الذين هرعوا قادمين، وأمرهم بجلب الأدوات والعدة اللازمة ليُفتح هناك باب صغير يمكن أن يمر من خلاله إنسان. وبسرعة قصوى فتحوا في السور باباً.

ولكنه أصيب بالذهول بعد أن دخل، وضرب يده إلى زناره، وأخرج الورقة. فقد كُتب في الورقة: "سلطان سلاطيني، مبروك عليكم الباب الجديد الذي أمرتم بفتحه". إثر هذا، التفت إلى المغربي وقال له: - عفوت عنك هذه المرة من أجل صحة معرفتك.

لقد أخذ حي "يني قاب/الباب الجديد" اليوم اسمه من هذه

الحادثة⁽¹⁾.

(1) عالم التاريخ العدد 19، 15 كانون الثاني 1951، ص 805 و834.

ثمانى سنوات فى عهد السمور: السلطان إبراهيم (1640-1648)

دامت مدة جلوسه على العرش ثمانى سنوات وتسعة أشهر،
وعندما مات كان فى الخامسة والثلاثين؛ وهو يشبه أخاه
مراد الرابع بالبنية والملامح.

إسماعيل حقى أوزون تشارشلى

لُقِبَ السلطان إبراهيم فى التاريخ العثمانى من قبل بعض المؤرخين الذين
يُدعون المهارة والذين عاشوا فى عهد المشروطية الثانية بالمجنون، وخاصة مراد
الميزانجى مستلهمين الاسم من كتاب روضة الأبرار لعدوه اللدود شيخ الإسلام
عبد العزيز أفندى قره چلبى زادة⁽¹⁾. ونفهم من بحث المرحوم م. تشاغاتاي
أولوتشاي الذى عمل كثيراً على هذا الموضوع، ونشره فى مختلف المجلات
تحت عنوان: "هل كان السلطان إبراهيم مجنوناً أم مريضاً؟" أنه لم يكن مجنوناً،
بل كان مريضاً نفسياً.

وقَّع السلطان إبراهيم على قرارات سياسية جدية مثل حصار كريت، وتوجد
له 250 رسالة فى أرشيف قصر طوب قاب، وتعدُّ هذه الرسائل رقماً قياسياً
بالرسائل المكتوبة بخط يد سلطان. ويقدر ما تضمنته الرسائل من شكاوى
حول أسلوب المعالجة الذى يتبعه الأطباء، إلا أنها تضمنت تحذيرات خطيرة
لرجال الدولة من قبيل: "إذا كان رأسك ضرورياً لك، فاعمل هكذا". وتضم
هذه الرسائل نماذج لذلكه تُخجل الذين يصفونه بالمجنون⁽²⁾. واستخدم فى

(1) انظروا إلى: زيا نوري، أحجية السلطان إبراهيم، التاريخ يتكلم، العدد 57، تشرين الأول 1968،
ص 3937.

(2) انظروا إلى: إبراهيم حقى قونىالى، السلطان إبراهيم قصر للافتاء عالم التاريخ، العدد 4، I حزيران
1950، ص 141.

رسائله تركية صافية، ولغة الحديث اليومي.

كان السلطان إبراهيم طويل القامة، وطويل الوجه، لون شعره ولحيته خرنوبي مائل إلى السواد. بحسب "تاريخ صولاق زادة" فقد كان رجل دولة منور الوجه، وذا عينين سوداوين واسعتين، ومربوع القامة، وأفطس الأنف⁽¹⁾. كان يضج بالحيوية، ويتكلم بسرعة كبيرة.

يشبه وجهه وجه أخيه الأكبر مراد الرابع. يستعجل في كل شيء، ويتكلم بسرعة، ويتنظر حدوث ما يسمعه فوراً. لا يعرف الحيلة أبداً. ولكنه كريم جداً⁽²⁾. ونعرف أن السلطان إبراهيم كان يُربي طيراً في السجن الذي عاش فيه عندما كان أميراً⁽³⁾.

كان السلطان إبراهيم يصنع أهلة مثل جده سليم الثاني لتركب على العكاكيز، ويوزعها على الذاهبين لأداء فريضة الحج.

كان متعلقاً أكثر من المعتاد بالزينة والحياة الفاخرة وخاصة فراء السمور. لهذا السبب انتشر لبس فراء السمور في عهده، حتى إن المؤرخ أحمد رفيق يطلق على عهده اسم عهد السمور. ويعود سبب انتشار فراء السمور إلى زيادة برودة الطقس عما هو معتاد. يسمي المؤرخون الجغرافيون ذلك العهد العصر الجليدي الصغير.

كان السلطان إبراهيم معجباً بأداء فرقة تسمى فرقة العقيدة، ويتابعها باستمتاع. كان رئيس هذه الفرقة ممثلاً يدعى المصارع أيوب، وهو شاعر وكاتب ومثقف وطريف ومطرب جوال⁽⁴⁾.

ورث حب الخيل عن والده، ويُروى أن فرسان رودس ضبطوا سفينة تحمل أفضل أنواع الخيول، ولجأوا بها إلى كريت، وأن هذا أحد أسباب حملة كريت. (من المؤكد أن السبب الحقيقي ليس هذا).

(1) تاريخ صولاق زادة، المجلد الثاني، ص 553.

(2) مدحت سرت أوغلو، معجم التاريخ العثماني، ص 258.

(3) كانت هناك عادة سجن ولي العهد في إحدى غرف القصر لكي لا يتمرد على السلطان... م.

(4) أحمد راسم، مصدر سبق ذكره، ص 66.

صياد لا يعرف الكلل: محمد الرابع (1648-1687)

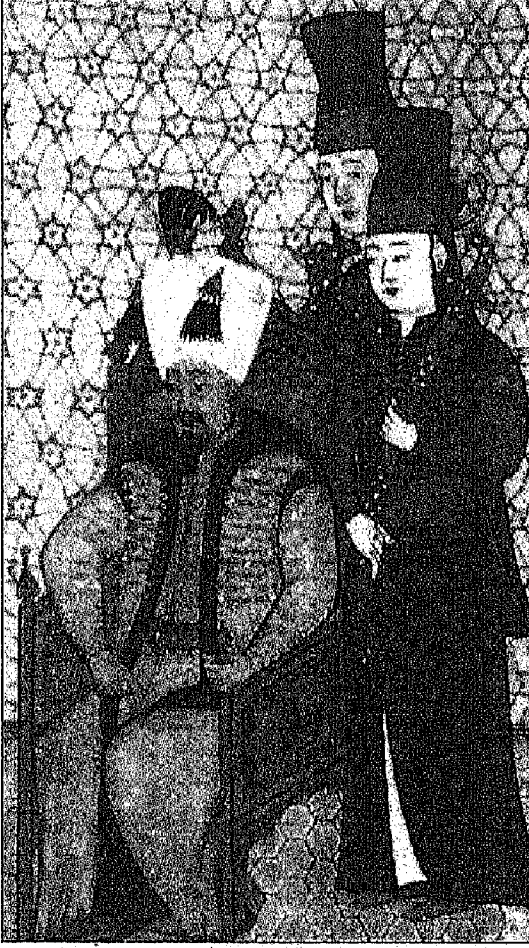
قال شيخ الإسلام أفندي ذات مرة: "الرجاء أن تتركوا الصيد عدة أيام يا سلطان سلاطيني وشرفوا القصر الجديد أو أحد القصور الشاطئية، وعودوا إلى متعتكم بعد أن تهدأ الشائعات".

السلاح دار محمد آفا

جلس محمد الرابع 39 عاماً على العرش، وهي ثاني أطول فترة حكم لسلطان عثماني بعد القانوني، وقد جلس على رأس الدولة وهو في السابعة من عمره أي في سن الدخول إلى المدرسة اليوم. مارس الحكم في ظل أغوات الثكنات وجدته السلطانة كوسم ماهيكر بداية، ثم أمسك بزمام القيادة، وسلم مقاليد الإدارة لعائلة كوبرولو.

كان متوسط القامة، وممتلئ الجسم، وأبيض البشرة، وملفوح الوجه المستدير الحنطي بالشمس، وخفيف اللحية، وأشهل العينين، وعريض الصدر. الصيد أشهر هوايات محمد الرابع وبلواه، لهذا السبب لقب الصياد. كان رجال القصر المهتمون بتربيته يعدّون له حفلات صيد خاصة منذ أن كان في التاسعة أو العاشرة من عمره، وحبّوا إليه هذه الهواية. ويرد في التاريخ أنه أمر بإنشاء قصور خاصة لكلاب الصيد التي يحبها. وكان شغفه بالصيد هذا سبب إسقاطه عن العرش.

كان أحمد الرابع يصطحب حبيبته السلطانة رابعة غولنوش إلى الحملات؛ وهذا استثناء لم يُسبق إليه، ويجول بها بعربة أو هودج من الفضة. ذات مرة، غاصت عربتها الفضية في الطين، فربطها الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا بفرسه، وأخرجها.



حراس محمد الصياد يحملون السلاح متأهين أثناء جلوسه على العرش.

اضطر السلطان لترك بلية الصيد التي يحبها كثيراً في آخر سنوات عهده بسبب كثرة القيل والقال بين الناس. شارك شخصياً بالحملة على جهرين التي تقع داخل حدود أوكرانيا اليوم. (هذا يثبت عدم صحة المعلومة التي تقول إن السلاطين العثمانيين لم يخرجوا على رأس الحملات بعد القانوني، فقد استمروا بالخروج في الحملات إلى تاريخ إسقاط مصطفى الثاني عن العرش بالقوة عام 1703) ها هو أنطوني غالاند يتحدث بالتفصيل عن العرض الرسمي العسكري المهيّب عند انطلاقه في حملة جهرين، وعودته، ويكتب أن "محمد" الرابع خرج مع نموره التي يأخذها عادة إلى الصيد⁽¹⁾.

(1) أنطوني غالاند، مذكرات إسطنبول 1672-1673 إعداد تشارلز شيفر، المجلد الأول، ترجمة ناهد سري أوريك، الطبعة الثانية، أنقرة 1987، منشورات مجمع اللغة التركية، ص 124.

